الأستاذ الدكتور
عبد الفتاح عاشور

المسلم في عالم اليوم

بحوث في الأخوة، والموالاة وبناء المجتمع المسلم

الجزء الثانى

دار محيسن
للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

ط - الأولى : ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م
ط - الثانية : ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م
ط - الثالثة : ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

الطبعة الثالثة
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

دار محيسن
للطباعة والنشر والتوزيع

٤٢ طريق النصر (الأوتوستراد)
وحدة رقم ١ عمارات امتداد رمسيس ٢
مدينة نصر - القاهرة - ت : ٢٦٣١٤١٢ (٢٠٢)
ص.ب. ٨١٧٧ - مدينة نصر - الرقم البريدي : ١١٣٧١
المطابع : مدينة العبور - المجمع الصناعي - وحدة ٢٠٥
E-mail: dar_meheisen@hotmail.Com

رقم الإيداع : ٥٨٥٠ / ٢٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

حمدا لله، وصلاة وسلامًا على رسوله.. «وبعد»

فالمسلم فى عالم اليوم حائر مضطرب، لا يدرى إلى أى جهة يتجه، ولا تحت أى راية يسير، ولا إلى أى جماعة ينضوى وينتسب، فأصبح يعادى من يستحق منه المسالمة، ويسالم من يجب أن يعاديه ويقاتله حتى يفضى إلى الجنة أو الظفر..

وترتب على هذا أن أضحت هذه الجموع الكثيفة من المسلمين غثاء كغثاء السيل، لا يأبه بكثرتها عدو، ولا يفرح بها حبيب، وكان لابد أن نشارك المخلصين من حملة القلم فى هذه الأمة فى رد القافلة الشاردة لرحاب الإيمان، حيث القوة، والمدد، والنصر، والسيادة، والريادة، والعزة، والكرامة، التى كفلها هذا الدين لأتباعه، وكان هذا الكتاب «**المسلم فى عالم اليوم**» جهد المقل، وصرخة قلب مفعم بحُب الله، وكتابه، ورسوله، والمؤمنين، يتحرق شوقا إلى يوم تخفق فيه بنود الحق ، وترتفع راية الإسلام خفاقة فى العالمين.

وقد جعلته فى جزءين : مضى الجزء الأول منه - بحمد الله وتوفيقه - وهذا هو الجزء الثانى، فى الجزء الأول عَرَف المسلم من هم أهل لمودته ومحبته، ومن هم إخوانه الجديرون بنصرته، ومعونته، ونحن نرى فى الباب الأول : الإخاء وحقوق الأخوة فى الله، وفى الباب الثانى : من يحبهم الله فعرفنا منهم: المتقين، والتوابين، والمتطهرين ، والصابرين، والشاكرين. والمقسطين، والمتوكلين، والمجاهدين، ومن يحبهم ربهم ويحبونه، وفى هذا

الجزء يأتى الحديث عن الوجه المقابل، وعن الركائز التى ترتكز عليها حياة المسلم، فيكون الباب الثالث : **البغض فى الله، ومن نبغضهم فى الله**، وفيه خمسة فصول تبين بغض الله للكافرين، والظالمين، والمعتدين، والمسرفين، والمستكبرين، والباب الرابع : **ركائز فى حياة أهل الإسلام**، وفيه أربعة فصول: الإخلاص ، والصدق، والوفاء، والأمانة، وبهذا تتحدد المعالم، وتتضح المسالك، ويحيا المسلم عزيزًا بدينه، قويًا بإيمانه، يُشكِّل مع إخوانه من أهل الإيمان جبهة قوية، كالشُّم الرواسى، لا تؤثر فيها العواصف الهوجاء، وكم فى ذلك من خير وسعادة فى الدنيا والآخرة.

والله أسأل أن يتقبل منى هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

والحمد لله رب العالمين،

عبد الفتاح عاشور

الكويت فى ٢٥ من رجب ١٤٠٦ هـ

٥ إبريل ١٩٨٦ م

الباب الثالث

البغض فى الله

ومن نبغضهم فى الله

وفيه خمسة فصول :

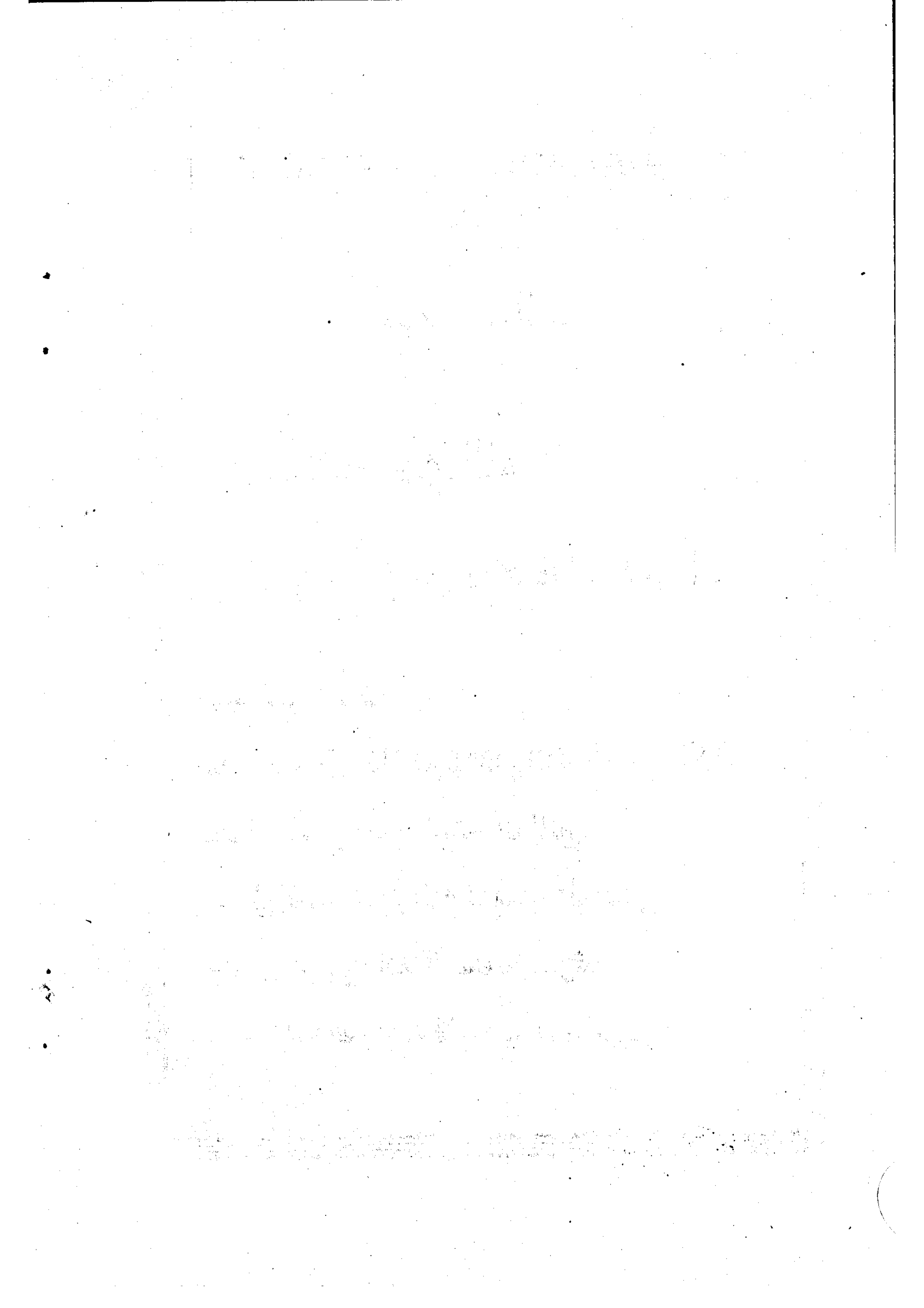
الفصل الأول : فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين.

الفصل الثانى : إنه لايحب الظالمين.

الفصل الثالث : إن الله لا يحب المعتدين.

الفصل الرابع : إنه لا يحب المسرفين

الفصل الخامس : إنه لا يحب المستكبرين



الفصل الأول

فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين

١- لماذا لا يحب الله الكافرين

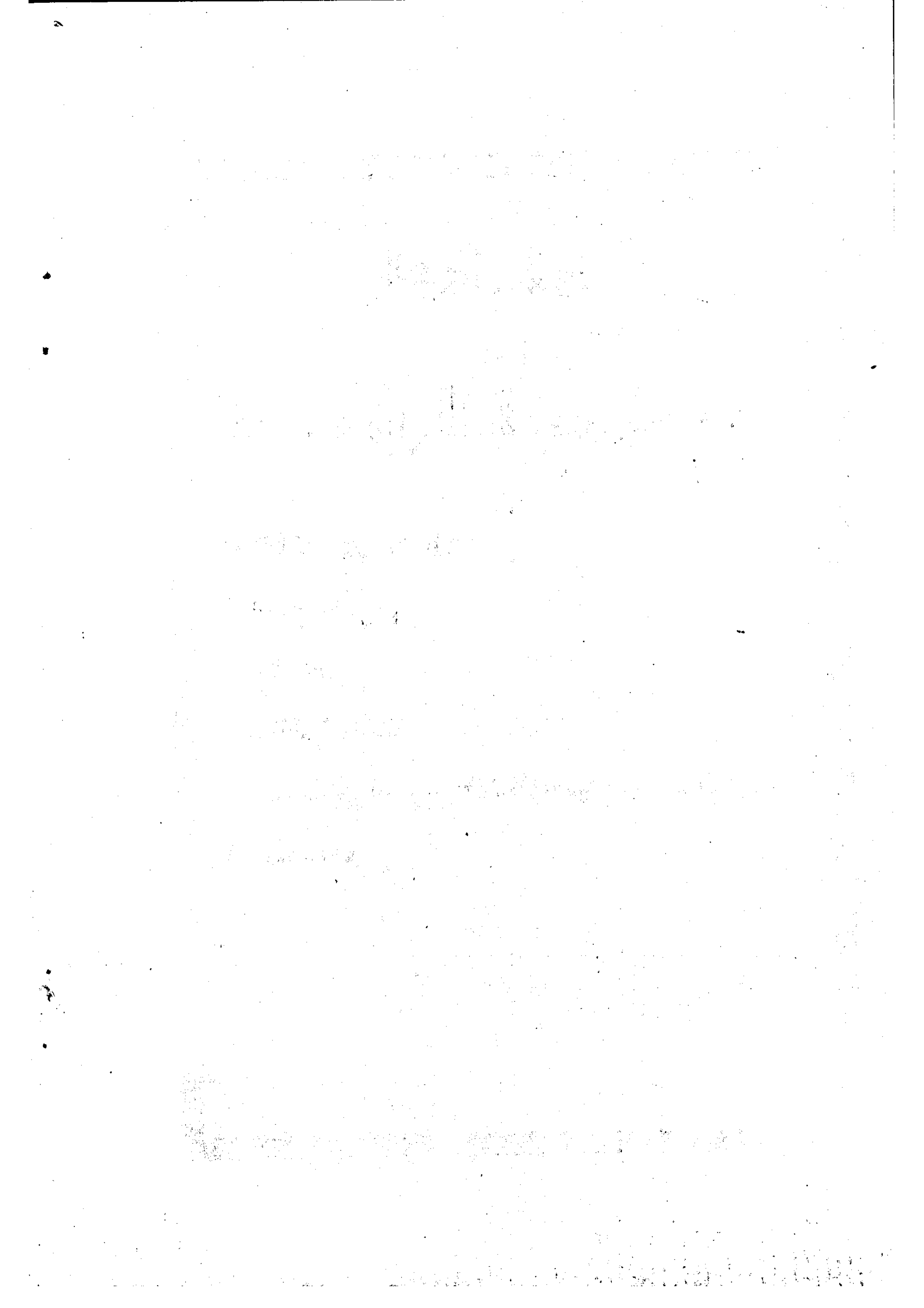
٢- أنواع الكفر:

(أ) الإلحاد

(ب) الشرك بالله

١- مقدمة في معنى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية

٢- مشركو العرب



الفصل الأول

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

١ - لماذا لا يحب الله الكافرين ؟؟

لقد تبين لنا - فيما سبق - من هم هؤلاء الذين يحبهم ربنا حتى نمنحهم - نحن معاشر أهل الإيمان - حبنا وولاءنا، فكان منهم : المحسنون، والمتقون، والصابرون، والمقسطون، والتوابون، والمتطهرون، والمجاهدون فى سبيل الله، والمحبون لربهم، إلى غير ذلك من أمثال هؤلاء الأطهار الأبرار الأخيار، وفى هذا الباب سنرى الوجه المقابل ممن لا يحبهم ربنا حتى نحرمهم من حبنا، وولائنا، وبذلك يستقيم إيماننا، ونعرف من نصادق ومن نعادى، فإن أخطر ما تبتلى به أمة ألا يعرف أبناؤها من هو الصديق، ومن هو العدو، فتصادق أعداءها، وتعادى أصدقاءها وأحبابها، فيكون فى ذلك هلاكها، وبوارها وضياعها. .

ومن لا يحبهم الله، ومن يبغضهم رب العزة - جل وعلا -، قد أوضحهم كتابه العظيم ونبيه الكريم، وما علينا إلا أن نتجول فى كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ لنكشف النقاب عن هؤلاء لنحذرهم، ونَحْذَرَ صحبتهم وطريقهم.

ولنبدأ بصنف حظى بأوفر نصيب من سخط الله وغضبه، وكان السبب فى إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وكان محط الصراع الدائر مع دورة الحياة، إنه : **الكفر بالله** ، وقد أخبرنا الإله المعبود بأنه : ﴿ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ فقال : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) وقال :

---

(١) آل عمران ٣ / ٣٢.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

فما هو الكفر ؟ ولماذا لا يحب الله الكافرين ؟ وماذا أعد لهم من سوء العذاب ؟؟

أما الكفر، فهو أشد وضوحًا من أن يعرف ويوضح، فمن الذى لا يعرف الكفر والكافرين ؟ وسوف نزداد معرفة بهم حين نبحث فى الصفات التى من أجلها أبغض الله الكافرين، ودعا المؤمنين إلى جهادهم، وإظهار الشدة عليهم.

وكلمة الكفر، أو قل مادة «الكاف والفاء والراء» تدور معانيها حول التغطية والستر، يقال : كفر الشئ كفرًا : ستره وغطاه، وتكفر بالشئ : تغطى به وتستر؛ ولهذا قيل لليل : كافر، لأنه يستر كل شئ بظلمته، وقيل للزارع : كافر، لأنه يغطى البذر بالتراب ، قال تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ (٢) فالكفار هنا : هم الزراع، وهكذا سمى الكافر لربه، لأنه ستر الحق وغطاه، وأظهر الباطل وكشفه، والحق : هو التوحيد، والاعتراف بألوهية الله وربوبيته، والاستسلام له، والانقياد، والطاعة، والحب، والعبودية، وما يتبع ذلك من الإيمان بالملائكة، والكتب ، والرسل، واليوم الآخر، والباطل : هو الإشراك، وإنكار ألوهيته، وربوبيته، والاستسلام لغيره، والعبودية لغيره، ومن فعل ذلك فهو ظالم ظلمًا عظيمًا، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٣)، وخائن لعهد الله، وكافر بنعمته عليه، لم يؤد حق هذه النعمة

(١) الروم ٣٠/ ٤٤ ، ٤٥.
(٢) سورة الحديد ٥٧/ ٢٠.
(٣) سورة لقمان ٣١ / ١٣.

بالطاعة والانقياد لولى النعمة، الذى خلقه فسوّاه فعدله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (١).

وهذا الظلم العظيم، وهذه الخيانة، وهذا الكفران، كلها أمور ترتبت على الكفر بالله، وهى مظهر من مظاهره، وعلامة من علاماته، وما ذلك إلا لأن الكافر أخفى وستر الحق الذى فطر عليه، وأظهر الباطل والضلال. وإنما نقول بأنه أخفى الحق، لأن توحيد الله فطرة، فطر الناس عليها، ولم ترسل الرسل، ولم تنزل الكتب إلا لإزالة الركام، والأقذار عن فطرة بنى الإنسان، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) وقال رسول الله ﷺ : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟؟» ثم يذكر أبو هريرة، راوى الحديث، قول الله تعالى : ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.

ومعنى هذا الحديث كما يقول العلامة ابن الجزرى : «أن المولود يولد على نوع من الجبلة، وهى فطرة الله - تعالى - وكونه متهيئًا لقبول الحقيقة طبعًا وطوعًا، ولو خَلَّتْهُ شياطين الإنس والجن وما يختار لم يختر إلا إياها، وضرب لذلك الجمعاء والجدعاء مثلا، يعنى أن البهيمة تولد سوية الأطراف سليمة من الجَدْع ونحوه، لولا الناس وتعرضهم إليها لبقيت كما ولدت سليمة» (٣)، وفى هذا يقول رسول الله -ﷺ- : «يقول الله : إنى خلقت

---

(١) سورة الحج ٢٢/ ٣٨.

(٢) سورة الروم آية ٣٠/ ٣٠.

(٣) جامع الأصول فى أحاديث الرسول : لابن الجزرى ١/ ٢٧٠.

عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم [أى حولتهم عنه] وحرمت عليهم ما أحللت لهم» (١).

لقد خلق الله الإنسان، وجعله مستعدًا للتلقى عنه، والسمع له، والعبودية له، فلما طمست هذه الفطرة النقية، وتلوثت بأدران الشرك، والجهل، والمناهج البعيدة عن هدايات السماء، بدا الإنسان فى هذا المظهر الجاحد، المنكر، المستعلى، المتكبر ، المتجبر، المفسد فى الأرض، لا يدين لله بالطاعة، ولا يعترف له بحقه فى أن يعبد إلهًا واحدًا وربا واحدا، ولهذا يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٢).

وقد روى الإمام أحمد وغيره عن أنس - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شئ، أكنت مفتديًا به؟ قال : فيقول : نعم، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بى».

وإذا كان الله قد خلق عباده حنفاء ، وجعل الفطرة الإنسانية مستعدة لقبول دعوة الحق، وأنها لم تنحرف عن غايتها إلا بفعل شياطين الإنس والجن، فإن الطريق لردها إلى ربها، وإزالة ما علاها من أتربة الشرك والكفر بالله، طريق يحتاج إلى جهد وعمل، ولنبدأ بالتربية الصحيحة والدعوة الصادقة المخلصة، وحماية أبنائنا ، ومن هم تحت رعايتنا من

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة الأعراف : ٧ / ١٧٢ ، ١٧٣ .

الفساد والانحلال، وبث نور الإيمان فى أرجاء النفس حتى يخالط هذا النور العقل والوجدان . .

وإذا كان هذا واجبنا نحو من نعول ومن نحب ومن هم من أبناء الإسلام، فإن الطريق ممهد لدعوة غير المسلمين إلى هذا الدين العظيم، لإنقاذهم من الكفر، والجهالة، والعمى، فإن الإيمان لا يأتى بالقهر، والإكراه، إنما الإيمان اقتناع بعد إقناع، وهكذا فعل سلفنا الصالح الذين انطلقوا من جزيرة العرب إلى أنحاء الأرض فحولوا الناس عن طريق الكفر إلى طريق الإيمان، وأقنعوهم بهذا الاسلام ، وفتحوا أعينًا عميًا، وآذانا صمًا، وقلوبًا غلفًا، ونشروا دين الله فى كل مكان، لا بسيوفهم، فإن هذه السيوف أعدت لإسقاط معاقل الظلم فحسب، حتى يرى الناس نور الله براقًا، مضيئًا ، إنما نشروه بصدق همتهم فى الدعوة لدينهم، وحسن عرضهم لمبادئه، وسلوكهم المؤمن الذى تشع منه روح القرآن، ونور الوحى، وروعة التطبيق ودقته لكل ما جاء به هذا الدين العظيم، فعلى حملة راية الاسلام، والمنتسبين لهذا الدين ألا يغتروا بما يرونه من بريق الكفر وصولجانه، فإنه يخفى تحته فطرة، واستعدادًا، وقبولا لنور الله وهديه، وما على أهل الإسلام إلا أن يزيلوا هذه القشرة : وأن يردُّوا الإنسانية الحائرة المعذَبة إلى رحاب الإيمان، وساحة العبودية لله رب العالمين . .

٢- أنواع الكفر :

(أ) الإلحاد :

والكفر ألوان وأنواع، وكله رجس ونجس، وبلاء ودمار أصاب الفطرة الإنسانية فحجبها عن ربها، وفى مقدمة هذه الألوان والأنواع : الإلحاد وهو : إنكار وجود الله ، وصاحب هذا اللون محجوب بحجاب المادة، لا

يرى ما وراءها، فهو لذلك بليد الحس، أعمى القلب، لا يرى شواهد القدرة الربانية، ودلائل الوجود الإلهى، وهذا وأمثاله هم الكفرة الطبيعيون الدهريون، المنكرون للإله الصانع، جلَّ وعلا، الذين حكى القرآن قولهم فى سورة الجاثية : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (١) .

يقول ابن كثير : «وهذا يقوله مشركو العرب، المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة والإلهيون منهم، وهم ينكرن البداءة والرجعة [أى أن الله هو الخالق، وأن إليه المآب]، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية، المنكرون للصانع، المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شئ إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول ولهذا قالوا : ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ (٢) .

وعلى طريقة هؤلاء فى إنكار الوجود الإلهى : الشيوعيون وأشباههم، ومن سار على طريقهم، ولا يخفى على أحد ما وصل إليه هؤلاء الشيوعيون من سيطرة وغزو، وإنتشار فى أنحاء الأرض، إلى أن دالت دولتهم، وضاع مجدُهم، وتمزقت إلى دويلات وقد كانت الأحزاب الشيوعية المعلنة، والمستترة - فى كل أو فى أغلب بلاد الله - تتبنى تربية أجيال، لتضرب كل من يعترف بالإله، وعلى رأس من تقصدهم الشيوعية أهل الإسلام، وإن لم يكن لهم من الإسلام إلا اسمه،ولا من الدين إلا رسمه، لكن حتى هذا الانتساب لدين الإسلام تأباه الشيوعية، وترفضه، وتحارب أهله، وتسومهم سوء العذاب، وما ارتكبته الثورة البلشفية الشيوعية فى روسيا فى حق المسلمين من حرق وقتل وتقطيع وتشريد، وما زالت ترتكبه من جرائم فى حق البقية الباقية منهم، وفى

(١) سورة الجاثية ٤٥ / ٢٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ١٥٠ .

حق المسلمين فى كل شبر من أرض الله، يشهد بالعداء الفاضح المكشوف لأهل الإيمان، وما ذلك إلا لأن هؤلاء الشيوعيين حُجِبُوا عن ربهم، وعاشوا فى حدود شهواتهم وأطماعهم ودنياهم لم يعترفوا بإله خالق مدبر لهذا العالم، ولو عقلوا، وتدبروا لعلموا أن كل حركة وسكون فى هذا الوجود ترشد إلى الرب الموجود، وأنه لا قيام لشئ بدون الإله الحق، بديع السموات، والأرض، يقول العَلامة «نيوتن» أعظم علماء الطبيعيات : «لا تَشُكُّوا فى الخالق، لأنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قائدة الوجود، لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان وزمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة، بل إن هذا كله لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أزلى له حكمة وإرادة».

ويقول : «كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة، ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ وهل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه ؟ والأذن بدون إلمام بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ؟ ومن أين جاء هذا الإلهام الفطرى فى نفوس الحيوانات ؟؟؟» إلى آخر ما قال هو وأمثاله من العلماء الذين لم يدينوا بدين الإسلام، ولكن ظهر لهم بأن هذا الكون لابد له من مكون، ألا وهو العليم الخبير.

ولسنا بصدد عرض الفكر المادى الإلحادى فى القديم والحديث، ومناقشته والرد عليه فهذا موضوع يطول الحديث فيه، إنما أردت فقط أن أبيِّن بأن هناك من تَنكَّر لخالقه ، وأنكر وجوده، وادَّعى أنه لا إله وراء ما يرى وما يحس به، وأن هذه الفكرة الخبيثة قامت عليها دولة، ونفق لها سوق، ووجدت عقولا فقدت أبسط ما يتصف به كل ذى عقل فقبلتها، وعاشت فى حدودها فخسرت ما لا يخطر على بال فى الأنفس والأموال

والدماء، وتأخرت دهورًا، وشقيت بذلك كله شقاءً رهيبًا، وحظيت بأوفر نصيب من سخط الله وغضبه ومقته فى الدنيا، ولهم يوم يردون إلى الإله الذى أنكروه العذاب الأوفر، والخزى الأعظم، وساعتها يندمون، ولات ساعة مندم، فنعوذ بالله من شرورهم، ونسأله - سبحانه - أن يحفظ المسلمين من مكرهم وغدرهم.

(ب) الشرك بالله

١- مقدمة فى معنى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية :-

وإذا كان هؤلاء قد أنكروا الوجود الإلهى، فكانوا فى مقدمة من كفر، فإن هناك آخرين اعترفوا بالله ربًا ، ولم يتخذوه إلهًا، فعبدوا معه أو من دونه آلهة أخرى، فكانوا بذلك كافرين بالله، وهم المشركون الذين كثر الحديث عنهم ومعهم فى كتاب الله، وهم الصنف الغالب فيمن كفر بربه، لأن الاعتراف بالله ربًا لم يكن محل إنكار فى التاريخ الإنسانى إلا من شذَّ من البشر، وهم قلة لا تذكر، إنما كان موضع الإنكار هو ما يترتب على الاعتراف بربوبية الله من التأله له ، والعبودية له، والإخلاص له ، وهو ما يسمى بتوحيد الألوهية وهذا هو الذى جاء من أجله الأنبياء ، وعليه جاهدوا أقوامهم، فهؤلاء المشركون كما حكى الله عنهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [١] وكما قال تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [٢]

(١) سورة الزخرف : ٤٣/ ٩.
(٢) سورة المؤمنون ٢٣ / ٨٤ - ٩٠.

وكما قال : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[1] وضلالهم وكذبهم هو إنكارهم ألوهية هذا الرب الذى اعترفوا بربوبيته لهذا الوجود، وقد حكى الله هذا الإنكار فقال : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾[2] .

وإذا كان العجب قد أخذ قريشًا حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى التوحيد، وأصروا على ما هم فيه من الباطل، فإن هذا هو شأن الأمم مع أنبيائها، كلما جاء أمة رسولها كذبوه وعاندوه ووقفوا لدعوته بالمرصاد إلى أن حقت عليهم كلمة الله : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[3] . وإذا ما قلنا بأن الشرك يعنى الشرك فى الألوهية لا فى الربوبية، فلابد أن نتوقف قليلا لنعرف المقصود بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ولماذا سلَّم المشركون بالأولى ولم يسلِّموا بالثانية فنقول : الرب فى لغة العرب هو : المالك، والسيد، والمربى، والقَيِّم ، والمنعم ، والمدبر، والمصلح، يقولون : رَبَّ الولدَ ربًا : وَلِيَهُ وتعهده بما يُغَذِّيه وينميه ويؤدبه، ورَبَّ القوم : رأسهم وساسهم، وربَّ الشئ : أصلحه ومتَّنه، والراب : زوج الأم يربى ابنها من غيره، والرابة :

(١) سورة يونس ١٠ / ٣١ ، ٣٢.
(٢) سورة «ص» ٣٨ / ٤ - ٧.
(٣) سورة العنكبوت ٢٩/ ٤٠ .

زوج الأب ، تربى ابنه من غيرها، والربيب : هو الرب، والمعاهد ، والربيبة : بنت امرأة الرجل من غيره، والحاضنة : المربية للصبى.

فأنت ترى معى أن لفظ الرب يطلق على معانى : التربية، والملك، والتدبير ، والإصلاح ، والتنمية ، والقيام بما فيه الخير لمن يقوم به، وهذه كلها فى أكمل معانيها لله رب العالمين، ولا يمكن لمن عنده أدنى مُسْكَة من عقل أن يُسأل عن السماء المرفوعة ، والأرض المبسوطة ، والكواكب النيرة، والمخلوقات العجيبة : من خلق ذلك كله ؟ فيقول بأن الذى خلقها هو هذا الشجر أو ذاك الحجر، أو هذا الإنسان ، أو ذاك الحيوان، إنما لابد لهذا من مدبر حكيم عليم قادر، ولهذا لم يمار المشركون فى إثبات هذه الحقيقة، ولم يختلفوا مع الأنبياء فيها، إنما سلموا بها كل التسليم واعترفوا بأن الذى خلق السموات والأرض، هو العزيز العليم، أما الجانب الآخر، وهو توحيد الإله فقد أنكروه وعجبوا منه، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [١].

فما معنى الإله ؟ ولماذا عجبوا من دعوة الرسل إليهم لأن يوحدوا هذا الإله ؟. أما الإله فهو : لفظ يطلق على المعبود بحق أو بباطل، ولذا قال تعالى : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [٢] قال ذلك ليرد على من أشرك به فى ألوهيته، وقال أيضًا: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾ [٣].

(١) سورة الصافات ٣٧ / ٣٥ ، ٣٦.
(٢) سورة البقرة ٢/ ١٦٢ .
(٣) سورة الفرقان ٢٥ / ٣.

وأصل الكلمة من أله يأله إلاهة وألوهة، وألوهية بمعنى عبد، من باب فتح يفتح أو سمع يسمع، وأله ألهًا : تحير، وأله إليه: لجأ ، وقيل أصل أله: ولاَه، فأبدلت الواو همزة، والَوله : شدة التعلق بالشئ، وشدة الوجد عليه، والفزع له، تقول : وله الصبى إلى أمه : فزع إليها فهو والهٌ وولهان، ووله يله ويوله ولَهًا وولهَانًا، وقيل أصله من لاه يلوه لياها وليها بمعنى تستر واحتجب.

والإله الحق له ذلك كله فهو المعبود الذى تحار العقول فى إدراك ذاته، فعليها أن تتفكر فى الإله وألا تتفكر فى ذاته فتضل وتهلك، إنما تؤمن به دون تمثيل أو تشبيه أو تعطيل إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

وهو الذى يلجأ إليه الخلائق فى كل أمر : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

وهو الذى تتعلق به القلوب، وتفزع إليه، وتحبه، وتشتاق إليه، وهو الذى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (٣).

فأنت ترى فى كلمة «الإله» ما يشير إلى علاقة العبد بالرب فى عبودية هذا العبد وتعلقه وفزعه ومحبته وشوقه لهذا الرب العظيم، ومن جعل من ذلك شيئًا لغير الله فقد أشرك مع ربه ما جعله له معبودًا يفزع إليه ويحبه ويعظمه.

وهكذا كان يفعل عُبّاد الأصنام والأوثان والأشجار والأحجار والكواكب والنجوم والإنسان والحيوان، وقد قال قائلهم ما حكى الله عن المشركين من أهل مكة : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٤).

---

(١) سورة الشورى ٤٢ / ١١.
(٢) سورة النمل ٢٧ / ٦٢.
(٣) سورة الأنعام ٦ / ١٠٣.
(٤) سورة الزمر ٣٩/ ٣.

والعبادة هى الخضوع والتذلل للمعبود، والرجاء فيه والخوف منه، وهذا مقام عظيم لا يليق إلا بالله الواحد الأحد، وعلى قدر إخلاص العبد فى الطاعة لمولاه، تكون درجته من هذه العبودية، ولذلك كان رسول الله ﷺ أول العابدين ، وكانت هذه الصفة هى أشرف وأكرم وصف فى أشرف وأكرم مقام له عليه الصلاة والسلام، إذ وصفه بذلك فى مقام الوحى إليه فقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [1] وفى مقام الدعوة إلى ربه فقال : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[2] وفى إسرائه به حيث قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3] إلى غير ذلك مما نجده فى كتاب الله من وصف رسول الله ﷺ ووصف الأنبياء - عليهم السلام - بهذا الوصف الجليل..

ولكن المشركين أشركوا فى هذه العبادة فعبدوا مع الله، أو من دونه آلهة أخرى، ولو عقلوا، لعلموا أنَّ ما سلموا به من ربوبية الله يقودهم لا محالة إلى أن يفردوه بالطاعة، والعبادة، والمحبة، وألا يشركوا فى ألوهيته جلَّ وعلا.

والقرآن زاخر بهذه المعانى حيث ترى ما يُذَكِّر الله به أهل الشرك من إيمانهم بربوبيته. وبالتالى فلابد أن تكون الطاعة والعبادة، والمحبة له وحده، لا أن تصرف لواحد من مخلوقاته، فأنت - مثلا - تقرأ فى سورة النمل قول الله تعالى : ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا

(١) سورة الكهف ١٨/ ١.
(٢) سورة الجن ٧٢ / ١٩.
(٣) سورة الإسراء ١/١٧.

أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [1] فهو سبحانه يرشدهم إلى ما يسلمون به من خلق الله للسموات والأرض، وإنزاله للماء من السماء، وإنباته للحدائق ذات البهجة التى لا يستطيع مخلوق أن ينبت شجرة، ولا جزءًا من شجرة منها، ثم يسألهم سؤال إنكار، وتوبيخ فيقول : أإله مع الله ؟ ويقرر أن القوم لم يسيروا على الطريق الواضح المستقيم، ومنطق العقل السليم فعدلوا عن توحيد الإله إلى الإشراك به، وسووا مخلوقًا بخالق : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [2] وهكذا تسير الآيات تذكّر بمظاهر هذا الوجود التى لا يمكن لعاقل إلا أن يقول بأن هناك ربًا يدبر أمرها، لتسأل فى نهاية كل آية هذا السؤال : أإله مع الله؟؟ ولنتابع قراءة الآيات حيث يقول ربنا : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [3].

إلى غير ذلك من الآيات فى كتاب الله - عز وجل - والتى تبين أن توحيدهم لربوبية الله لابد أن يتبعه توحيدهم لألوهيته، إذ ليس من المعقول أن يسلموا بأن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت الضار النافع ثم لا يعبدونه وحده، ولا يستنصرونه وحده، ولا يدعونه وحده، إنما يعبدون معه آلهة أخرى ظنًا منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى، أو أنها تضر أو تنفع . .

---

(٤) سورة النمل ٢٧ / ٦٠ .

(٢) سورة النحل ١٦ / ١٧ .

(٣) سورة النمل ٢٧ / ٥٩ - ٦٤ .

٢- مشركو العرب

وإذا كان توحيد الألوهية يعنى إفراد الإله الحق بالعبادة والمحبة وتعلق القلب، فإننا نستطيع أن نتتبع كثيراً من مظاهر الشرك قديمًا وحديثًا، فإن الحديث منه يعود فى الحقيقة إلى القديم فمن ذلك مشركو العرب، وما كانوا يعبدون من أصنام لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع يدعونها، وينذرون لها، ويحبونها من كل قلوبهم، ويتقدمون لها بكل العبادة والطاعة. . يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [1].

ويقول سبحانه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [2].

وهؤلاء الذين اتخذوهم شفعاء لهم عند الله وعبدوهم من دون الله سيتبرأون منهم يوم القيامة. . والآيات فى ذلك كثيرة : يقول ربنا : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [3].

---

(١) سورة النجم ٥٣ / ١٩ - ٢٣.
(٢) سورة يونس ١٠ / ١٨.
(٣) سورة يونس ١٠ / ٢٨ - ٣٠.

وهم فى الواقع لم يكونوا يعبدون إلا أهواءهم والشياطين التى أضلتهم وأعمتهم وأردتهم فى مهاوى الشرك، يقول ربنا : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (1).

وإنما يسأل الله الملائكة، لأن عُبَّاد الأصنام كانوا يدَّعُون أنهم صوروا هذه الأصنام على صورة الملائكة، وأنهم إن تقربوا للأصنام فإنما يتقربون للملائكة التى تقربهم من الإله الحق، وخيَّل إليهم وهمُهم أن الملائكة بنات الله.. وهو وَهْمٌ كاذب، وظن سيئ، مع أن العرب كانت تكره البنات وتئدها ومع ذلك جعلوا لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى؛ ولذلك قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (2).

والمشركون من جهلهم جعلوا لله مما ذرأ (أى خَلَق) من الحرث والأنعام نصيبًا، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، وجعلوا هؤلاء الشركاء بنات الله، وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم، يقول الإمام الحافظ ابن كثير -عليه رحمة الله- : «فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ : **أحدها** : جعلهم لله تعالى ولدًا ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا، **الثانى**: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد

(1) سورة سبأ ٣٤/ ٤٠، ٤١.
(2) سورة الزخرف ٤٣ / ١٥ - ٢٠.

الرحمن إناثا، **الثالث** : عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله - عز وجل - بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والاباء والخبط فى الجاهلية الجهلاء، **الرابع** : احتجاجهم بإقْدَارهم على ذلك قدرًا، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلا كبيرًا فإنه - تعالى - قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل أنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (١) .

وقال - عز وجل - : ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ** ﴾ (٢) وقال - جل وعلا - فى هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه : ﴿ **مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ** ﴾ (أى بصحة ما قالوه وما احتجوا به) ﴿ **إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** ﴾ أى يكذبون ويتقولون (٣) فالمشركون فى هذا عبدوا الجن، ولم يعبدوا الملائكة ، فإنَّ الملائكة تتبرأ من ذلك كله. قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ (٤) فإن الجن هم الذين أمروهم بذلك فأطاعوهم واتبعوهم فكانوا عابدين لهم، كما قال - عز من قائل - : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** ﴾ (٥) .

---

(١) سورة النحل ١٦ / ٣٦.
(٢) سورة الزخرف ٤٣ / ٤٥ .
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٢٥ .
(٤) سورة الأنعام ٦/ ١٠٠ .
(٥) سورة يس ٣٦ / ٦٠ - ٦٢ .

وقال إبراهيم لأبيه : ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ وآزر أبو إبراهيم، كان من عباد الأصنام، فقال له ابنه إبراهيم عليه السلام : ﴿لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لأنه حين يعبد الأصنام إنما يعبد الشيطان الذى صرفه عن عبادة الله الواحد الأحد.

وقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (١). والآيات فى هذا كثيرة، وبها وبما بذل رسول الله ﷺ والثُّلَّةُ المؤمنة معه من جهود مباركة فى دعوة الناس إلى التوحيد الخالص والكامل : توحيد الله فى ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته تهاوت صروح الشرك وبطلت عبادة الأصنام والأوثان وسائر ما يعبد من دون الله، وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وبقى على المسلمين فى كل زمان وفى كل مكان أن يحملوا هذه الرسالة، رسالة التوحيد للعالمين، بالحكمة والموعظة الحسنة حتى يقتلعوا جذور الكفر من الأرض، ويحققوا قول ربهم : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢).

وعلاقتنا بهؤلاء الملحدين والمشركين سبق الحديث عنها فى الجزء الأول من هذا الكتاب حين تحدثتُ عن الأخوة الإنسانية وما لها من حقوق، والتى نراها فى قول الله - تعالى - : ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ

(١) سورة النساء ٤ / ١١٦ - ١٢٠.

(٢) سورة التوبة ٩/ ٣٣، الصف ٦١/ ٩.

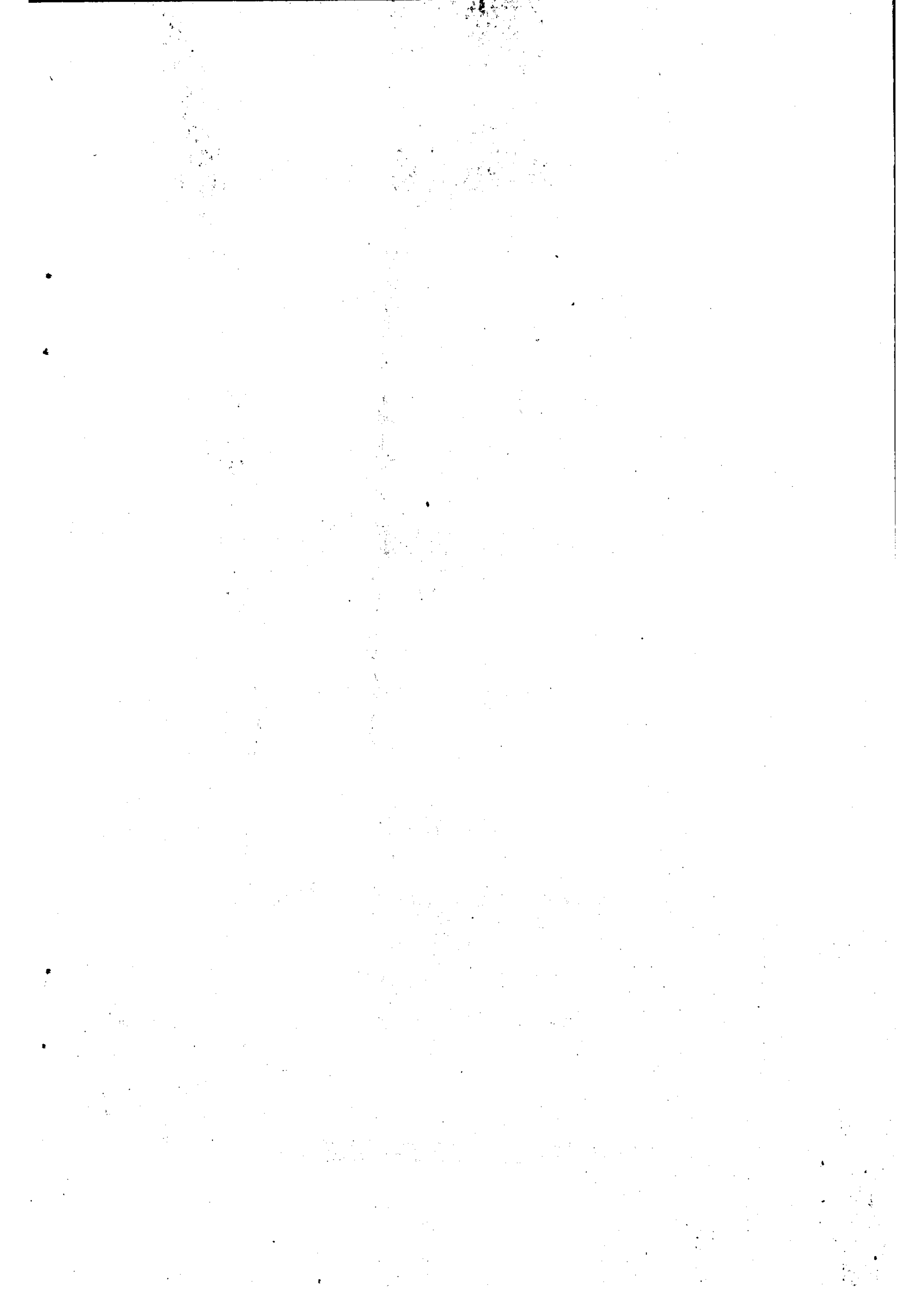
وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [1] كما نراها فيما ورد من توجيهات نبوية، وتطبيقات إسلامية فى كيفية معاملة غير المسلمين مما يدلك على أن هذه الدنيا لا تصلُح بغير الإسلام، فهو دين الرقى الإنسانى والحضارة العالمية، وهو أمل الإنسانية فى حياة كريمة آمنة مطمئنة لا يبغى فيها أحد على أحد ولا يظلم فيها أحد أحدًا، فهل لأتباع هذا الدين أن يحملوا هذه الرسالة وأن يؤدوا تلك الأمانة قبل أن يستبدل الله القاعدين عن نصرة دينه بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم..؟؟ فاللهم اشرح الصدور واجمع القلوب على محبتك ونصرة دينك يا أرحم الراحمين.

(١) سورة الممتحنة ٦٠ / ٨، ٩.

الفصل الثانى

إنه لا يحب الظالمين

- الكافرون : وظلمهم.
- ظلم الولاة والحكام .. وآثاره
- من الظلم : تَعدِّى حدودِ الله
- من الظلم : التعدى على الناس، ومنعُهم حقوقَهم



الفصل الثانى

إنه لا يحب الظالمين

١ - الكافرون وظلمهم :

لقد أخبرنا ربنا فى كتابه بأنه لا يحب الظالمين، فلنعرف ما هو الظلم ؟ وما هى مظاهره ؟ ولماذا لا يحب الله الظالمين ؟؟

الظلم : وضع الشئ فى غير موضعه، وفى المثل : من استرعى الذئب فقد ظلم، وهذا مثل يضرب لمن يولى غير الأمين، ويقال : ظلم الأرض : حفرها فى غير موضع حفرها، وظلم فلانًا حقه : غصبه أو نقصه إياه، وظلم الطريق : حاد عنه، والظلم، والظلمة، والإظلام، كلمات متقاربة.

فإن وضع الشئ فى غير موضعه، يؤدى إلى عدم الاهتداء إليه، فشأنه شأن ما وضع فى الظلام، إذ لو دخلت مكانًا مظلمًا ما استطعت أن تهتدى فيه لشىء، والظالم يحيا فى الظلام : ظلام الحقد، والجهل، والحمق، والشهوات، ظلام الحرمان والاحتجاب عن الله، ظلام الخوف، والغدر، والخديعة، والخيانة، وهذا الظلام سوف يصاحبه إلى يوم القيامة حيث يكون فى ظلمات النار، وبئس القرار، ولهذا قال رسولنا ﷺ : «واتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة . .» [١].

وأعظم الظلم وأخطره هو الإشراك بالله. . ولذلك قال لقمان لابنه وهو يعظه : ﴿**يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [٢] فكانت هذه وصيته الأولى لابنه، لأنه بدون تحقيق هذه الوصية ، والقيام بما يلزمها، لا فائدة لعمل من الأعمال مهما عظم، قال تعالى : ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا**﴾[٣] وكانت كل الذنوب والمعاصى بجانب الشرك لا شىء،

---

(١) رواه مسلم عن جابر - رضى الله عنه -.

(٢) سورة لقمان ١٣/٣١ .

(٣) سورة الفرقان ٢٥ / ٣.

كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(١)، وكما جاء فى الحديث القدسى الذى رواه الإمام أحمد عن أبى ذر - رضى الله عنه -، وفيه : «. . يا عبدى إنك إن لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لقيتك بقرابها مغفرة. .» ولذلك قال ربنا : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٢) وقال : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ (٣).

وثبت فى الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه قال : قلت : يا رسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال : «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك . .» وكان الشرك أول شىء يذكره رسول الله ﷺ فى السبع الموبقات «أى: المهلكات»، وأول شىء يذكره فى الكبائر السبع. . فالشرك ظلم وأى ظلم، وهلاك وأى هلاك، وهو أعظم سقطة يقع فيها الإنسان، وأبشع إثم يمكن أن يرتكبه هذا المخلوق الذى فضله ربه على كثير ممن خلق تفضيلا، ولهذا لا يحب الله الكافرين، ولا يرضى عن هؤلاء الظالمين، وهم مستحقون لغضب الله ومقته وسخطه، وليس لهم حظ فى محبة الله، ورسوله، والمؤمنين، ولنرَ مظاهر لظلم الكافرين تضاف لظلمهم الأكبر، وهو التنكر لله وعبادة غيره، لنعرف أن هذا الكفر، وهذا الظلم انتشر فساده وسرى ضرره إلى كثير من نواحى الحياة فأفسدها، وإلى كثير من القيم والمبادئ والمثل فقضى عليها.

فأنت ترى من ظلمهم : التكذيب بآيات الله، والإعراض عنها، وصرف الآخرين عن الاستجابة لها، وفى ذلك تقرأ فى كتاب الله قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤).

(١ ، ٢ ، ٣) سورة النساء ٤/٤٨ ، ١١٦.
(٤) سورة الأنعام ٦ / ٢١.

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ (١).

وقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢).

وقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أى انصرف وأعرض، وصرف غيره عنها ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ (٣).

وقوله فى سورة يونس : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٤).

وفى سورة هود : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٥).

وفى سورة الكهف : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ (٦).

إلى غير ذلك من الآيات التى يسوقها القرآن، ويصوغها فى هذا التساؤل الإنكارى الذى يثير الدهشة والعجب من حال هؤلاء القوم الذين وقفوا من آيات الله المتلوّة المقروءة عليهم، وآياته الظاهرة المسطورة فى هذا الوجود، هذا

(١) سورة الأنعام ٦ / ٩٣.
(٢) سورة الأنعام ٦/ ١٤٤.
(٣) سورة الأنعام ٦/ ١٥٧.
(٤) سورة يونس ١٠/ ١٧.
(٥) سورة هود ١١/ ١٨، ١٩.
(٦) سورة الكهف ١٨/ ٧٥.

الموقف المتعنت المكذب، فهل هناك أظلم ممن فعل ذلك ؟؟ ولهذا حرموا من الخير كله، وكانوا ظلمة، مجرمين، مستحقين للعنة الله لهم، ولننظر إلى بعض ما جاء فى ذلك من الآيات التى ذكرناها لنرى قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقوله : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقوله : ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وكلها تبين ألوانًا من الظلم البشع ، فنعوذ بالله من الظلم والظالمين . .

كما ترى من ظلمهم : رفضهم لشريعة الله، وتحاكمهم إلى الطاغوت، قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١) فبعد أن وصفهم بالكفر لأنهم لم يحكموا بما أنزل، وصفهم مرة أخرى بالظلم، وجعلهم وحدهم الظالمين كأن الدنيا ليس فيها من الظالمين سواهم . .

وهذا لون آخر من ظلمهم قاتم مظلم، فيه من الظلم الكثير، إنه الحرب والعداء والتحدى والرفض لدعوة المرسلين، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٢).

وفى سورة هود - بعد أن قصّ الله ما قصّ من أمر نوح ، وهود، وصالح، ولوط ، وشعيب ، وموسى، وما كان من أمر أقوامهم وكيف أهلك الله المكذبين المعاندين - قال عز من قائل : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (٣).

---

(١) سورة المائدة ٥ / ٤٥ .

(٢) سورة ابراهيم ١٤ / ١٣ - ١٥ .

(٣) سورة هود ١١ / ١٠٢ .

أما عداوتهم لأتباع الرسل، وما فعلوه بهم من تقتيل وتشريد وتعذيب فهو أكثر من أن يحصر ، وهو ظلم لأهل الإيمان الذين لا ذنب لهم إلا أن قالوا : «**ربنا الله**»، وأمثال هؤلاء الظالمين لا يحبهم الله، بل يبغضهم ويلعنهم ويمقتهم، وقد أعد لهم عذابًا أليمًا : ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ** ﴿٤٢﴾ **مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾ (١) .

وإذا ما أردنا أن نعرف مظاهر أخرى لظلم هؤلاء الكافرين فإن الحديث عن ذلك يطول، وحسبنا أن نعرف من ذلك أن هؤلاء اتبعوا أهواءهم وتركوا وحي الله وهديه، وهذا ظلم، يقول الله فيه : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (٢) .

ويقول : ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴿١٨﴾ **إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ (٣) .

إلى غير ذلك من الآيات التى تتحدث عن إهلاك الله للظالمين، وما أعده لهم فى الآخرة من سوء العذاب، والقرآن يفيض بالكثير من ذلك. . فقد ذكرت مادة الظلم فيه تسعًا وثمانين ومائتا مرة، كان لظلم الكفر والكافرين منها النصيب الأوفر.

فإن ما تركنا هذا اللون من الظلم فسوف نجد ألوانًا أخرى نوضحها فى الفقرات التالية :

(١) سورة إبراهيم ١٤ / ٤٢ ، ٤٣.

(٢) سورة القصص ٢٨ / ٥٠ .

(٣) سورة الجاثية ٤٥ / ١٨ ، ١٩.

٢- ظلم الولاة والحكام وآثاره

إذا كنا قد ذكرنا ما فى الإمام العادل من خير وفضل، وما أعدَّ الله له من ثواب، وأن الإمام العادل رأس كل صلاح وإصلاح، وبعدله يسود الأمان والوئام، وتنشر ألوية المحبة والسعادة والرخاء، إذا كان الإمام العادل كذلك وتلك آثاره [١] ، فإن علينا أن نعرف الوجه المقابل ألا وهو الإمام الجائر، وما يترتب على جوره وظلمه من آثار خطيرة فى دنيا الناس، وما أعد الله له من سوء العاقبة وسوء الحساب، فإن الإمام والحاكم إذا مال مال من دونه، وإذا جار وظلم وغش وخان، جارت وظلمت وغشت وخانت رعيته، فانقلبت الموازين، وهدمت القيم، وضاعت الحقوق، وانتشر الفساد. وكل ما جاء فى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ وما جاء على ألسنة الصحابة، والتابعين ومن بعدهم فى ذم الظلم، والظالمين، ووعيد من غش، وخان، كل ما ورد فى هذا الباب ، يدخل فيه الولاة، والحكام، والأمراء الظالمون دخولا أوليًا، وهم أولى وأعظم من يناله الوعيد، وما ذلك إلا لأن الظلم منهم كريه مقيت، وله آثاره المدمرة فى حياة الأمم والشعوب، ولنتأمل قوله تعالى : ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴾ [٢].

يقول الكلبى فى بيان المعنى : فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم، وقال كعب : أن تفسدوا فى الأرض أى: يقتل بعضكم بعضًا، وقال قتادة : إن توليتم عن طاعة كتاب الله - عز وجل - أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء وتقطعوا أرحامكم [٣].

(١) انظر فى الجزء الأول - القسم الثانى - الفصل السادس من الباب الثانى الفقرة الثانية : الوالى العادل : واجباته، وما أعد الله له من ثواب.

(٢) سورة محمد ٤٧ / ٢٢، ٢٣.

(٣) فتح القدير : للشوكانى ٥ / ٣٨.

فمن ارتكب هذا الظلم فقد استحق لعنة الله وغضبه، وكان حريًا بأن يترك فى بيداء هذه الحياة محرومًا من ربه، ليس له من التوفيق والهداية نصيب، لأنه ممن أصمهم الله وأعمى أبصارهم، حتى يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، فإن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [1].

وهذا داود - عليه السلام - يمدحه ربه ويثنى عليه الثناء العظيم حيث يقول سبحانه : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ ومع ذلك يقول له: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [2].

وإنما جاء هذا العتاب لنبى الله داود - عليه السلام - لأنه سمع من أحد الخصمين ولم يسمع من الآخر، فحكم ، وكان عليه أن ينتظر وأن يستمع للطرف الآخر، ولكنه حين قال واحد منهما : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ «أى ضمها إلىَّ» ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ «أى: غلبنى وأخذ منى شاتى» فقال داود عليه السلام- قبل أن يسمع حجة الخصم الآخر-: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ فكانت هذه هى فتنة داود التى استغفر منها ربه وخر راكعًا وأناب. . فما بالك بمن يميلون مع الهوى حيث مال، ومن يظلمون العباد والبلاد، وكما قال تعالى :

(١) سورة القلم ٦٨ / ٤٤ ، ٤٥.

(٢) سورة ص ٣٨ / ١٧ - ٢٠ ، ٢٦.

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [1].

وما بهذا تصلح الأمم وتستقيم الأمور، وكيف تستقيم وولاة الأمور يسعون فى الأرض بكل ما وسِعَهم السَّعْىُ، وبكل ما أتيح لهم من قوى ليفسدوا فيها، ويهلكوا الحرث والنسل، يهلكون الحرث - وهو الإنتاج - بإنفاقه وتسخيره فيما لا يحب ربهم ويرضى، ويهلكونه بإهماله وعدم العناية به، ويهلكونه بذنوبهم ومعاصيهم، ويهلكون النسل - وهو القوة البشرية التى تشاد بها الحضارات وتبنى على سواعدها الأمم - بتبديد طاقاته، وإلهائه بعيدًا عن عظائم الأمور، وبنشر الفاحشة، والخنا، والأفكار الهدامة بين صفوفه، وسد الطريق أمامه للزواج والعفة.

وأخطر ما تبتلى به أمة ألا يستجيب قادتها للنصح، وألا يستمعوا لدعاة الحق إنما تأخذهم العزة بالإثم، وإذا ترك الدعاة نصح القادة والأمراء والحكام، فإن هذا بداية النهاية، والطامة التى تؤذن بالفناء والدمار، فعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: «إذا رأيتَ أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم، فقد تُودِّع منهم» [2].

وظلم الرعية بلاء، وأى بلاء، إنه يضيع حرمة الأمة كلها، ويجعلها مهينة ذليلة أمام عدوها، وكيف ينتظر من قوم مقهورين أن يقاوموا عدوًا، أو يحملوا سلاحًا فى معركة، أو يرهبوا أحدًا ؟ ولذلك يقول رسولنا ﷺ: «لا تُقَدَّس أمة لا يُقْضَى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيفُ حقه من القوى غير متعتع» [3] أى لا تُحترمَ، ولا يُنظَر بعين التقدير والتكريم لأمة لا يُقضى فيها

---

(١) سورة البقرة ٢ / ٢٠٥ ، ٢٠٦.

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

(٣) رواه الطبرانى والبزار وابن ماجه عن معاوية - رضى الله عنه -.

بالحق، ولا يأخذ الضعيف فيها حقه من القوى لا يخشى أذى يصيبه أو ضراً يتعتعه، ويزعجه، ويقتلعه من مكانه.

وإذا كان هذا هو أثر ظلم الولاة فى الأفراد فهناك الخطر الأكبر، والبلاء الأعظم، لأن هذا الظلم يستجلب عليهم، وعلى من رضى بظلمهم الكوارث والبلايا، وقد جاء فى الحديث عند ابن ماجه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: «إذا جارت الولاة قحطت السماء - أى لم تنزل أمطارها -» فشاع الفقر والجوع وهلك العباد والبلاد، وقد سئل الإمام مجاهد عن قول الله - تعالى -: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ فقال: يلى فى الأرض فيعمل فيها بالعدوان والظلم، فيحبس الله بذلك القَطْر (أى: المطر) من السماء، فيهلك بحبس القطر الحرث، والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ مجاهد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [1].

ومن هذه الكوارث: فتح الطريق لأعداء الله للاستيلاء على خيرات المسلمين وبلادهم، وفى ذلك الحديث الذى رواه البزار والبيهقى عن ابن عمر، ورواه الحاكم من حديث بريدة وقال صحيح على شرط مسلم وفيه: «ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله إلا سلط عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض ما فى أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم».

فهل بعد أن فتح الظالمون الطريق إلى الفساد والضياع والفقر والجوع والفتن ظلم ؟؟ وهذا الظلم يجر الأمة كلها إلى المهانة، ويفتح الطريق لأعداء الله لينالوا ما يريدون من أمة الإسلام، وهذا ظلم ليس بعده ظلم، وأصحابه مما استحقوا غضب الله ومقته وسخطه، وهم غير جديرين - لذلك - بمحبة

(1) سورة الروم ٣٠ / ٤١.

الله ورسوله والمؤمنين، وقد قال رسول الله ﷺ : «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسًا : إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله - تعالى-، وأبعدهم منه مجلسًا إمام جائر» [١].

وروى الترمذى : «أشد الناس عذابًا يوم القيامة إمام جائر» [٢].

ولنستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به مغلولا يوم القيامة حتى يفكه العدل، أو يوبقه الجور» [٣].

وروى ابن حبان فى صحيحه عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من والى ثلاثة إلا لقى الله مغلولة يمينه : فكَّه عدله، أو غَلَّه جوره».

فهذا حال أمير عشرة أو أمير ثلاثة جاء مقيدًا بالسلاسل حتى يُقضى بينه وبينهم، فكيف يكون حال من ولى أمر الملايين من البشر، وأصبح مسئولا عن كل خلل يقع، وظلم يحدث، وتقصير هنا أو هناك ورحم الله ابن الخطاب ورضى عنه إذ قال : لو أن بغلة عثرت على نهر الفرات لسئلت : لم لم تسوِّ لها الطريق يا عمر ؟

فانظر إلى هذا الإحساس بعظم المسئولية عن أمة الإسلام، وقد سقنا الكثير مما جاء فى ذلك ونحن نتحدث عن الوالى العادل وما عليه من واجبات تجاه أمته ورعيته، وما أعد الله له من كريمَ المنازل وعظيم الدرجات.

إن الوالى الجائر كما جنى على أمته جنى على نفسه أيضًا، روى

(١) رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى.

(٢) رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى ، وقال : حديث حسن.

(٣) رواه البزار والطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة - رضى الله عنه -، ورجال البزار رجال الصحيح، ومعنى «مغلولا يوم القيامة» أى: مقيدًا مجموعة يداه إلى عنقه، ومعنى : «يوبقه الجور» أى: يهلكه ظلمه لهؤلاء.

الإمام أحمد وغيره عن بكير بن وهب - رضى الله عنه - عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «الأئمة من قريش، إن لى عليكم حقًا، ولهم عليكم حق مثل ذلك، ما إن استرحموا رحموا، وإن عاهدوا وفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

فقد ذكر رسولنا - عليه الصلاة والسلام - من واجبات الإمام ثلاثة : الرحمة، والوفاء، والعدل، وبيَّن أن من لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا ينفعه أنه قرشى، بل كما ذكر الرسول ﷺ فى رواية أخرى : لا يقبل منه صرف ولا عدل، أى: لا يقبل منه نفل، ولا فرض، فعمله مردود عليه يوم القيامة.

وعن معقل بن يسار - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة».

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «من ولى من أمر المسلمين شيئًا فغشَّهم فهو فى النار».

وعن عبد الله بن مغفل المزنى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «ما من إمام يبيت غاشًا لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة، وإن عَرْفها [أى: ريحها] يوجد يوم القيامة من مسيرة سبعين عامًا».

وقد سبق أن ذكرنا ما رواه البخارى، ومسلم عن معقل بن يسار - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من عبد يسترعيه الله - عز وجل - رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله - تعالى - عليه الجنة، وفى رواية : فلم يحطها بنصحه لم يرح

رائحة الجنة» [أى: لم يشم ريحها] والأحاديث فى هذا كثيرة، وكلها تبين ما للحاكم والأمير الذى جار وظلم من عاقبة وخيمة ، وما سيلقاه عند الله من نكال وبوار وخسران، وما يصيب الناس من ظلمه، وغدره، وفجوره، فاللهم أصلح أمراءنا وحكامنا، وارزقهم البطانة الصالحة، واجعلهم هداة مهديين، وهيئ لهم من أمرهم رشدًا.

٣- من الظلم: تعدى حدود الله:

من الظلم: تعدى حدود الله، وعدم الالتزام بما شرع، ومن فعل ذلك جاحدًا لحدود ربه، مستهزئًا بها، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وكفر بالله رب العالمين، ومن فعل ذلك جهلا وسهوًا وضعفًا لا إنكارا وجحودًا فقد ظلم نفسه، وارتكب معصية من المعاصى العظيمة، وعليه أن يبادر بالتوبة قبل فوات الأوان.

ولنأخذ أمثلة لذلك مما جاء فى سورة البقرة، والنساء، والمجادلة، والطلاق لنرى حكم الله فيمن تعدى حدوده : فى سورة البقرة تتحدث الآيات عن الطلاق، وما شرعه الله فيه ثم تقول : ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ ثم تواصل الآيات بيانها فتقول : ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا** [أى: الطلقة الثالثة] **فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (٢٣٠) **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ (١).

وفى سورة النساء : بعد أن ذكر ما شرعه فى النساء ، وفى اليتامى من

(١) سورة البقرة ٢ / ٢٢٩ - ٢٣١.

تشريعات محكمة تسعد بها المجتمعات وترقى، وبعد أن قسَّم التركات وبين حقوق الورثة عقَّب على ذلك بقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١).

وفى المجادلة : يذكر لنا حكم الظهار، وما يجب على من ظاهر من زوجته فقال لها : أنت علىَّ كظهر أمى، ثم يختم الحق هذا بقوله : ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢).

أما سورة الطلاق فتقرأ منها قوله الله - تعالى - فى مطلع السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ (٣).

فمن هذه الآيات الكريمات وأمثالها يتضح لنا أن من تعدى حدود الله، ومن لم يلتزم بشرع الله فقد ظلم نفسه، وظلم غيره، وعرّض نفسه لغضب الله وسخطه، ولذلك كان من صفات المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله ما ذكره ربنا فى سورة التوبة : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ (٤).

٤- من الظلم : التعدى على الناس، ومنعهم حقوقهم :

فهمز الناس ولمزهم : ظلم، وأى ظلم، إنه دليل الكبر والتعالى على خلق الله، يقطع أواصر المحبة والألفة، وينشر العداوة والبغضاء، ويؤدى إلى

---

(١) سورة النساء ٤ / ١٣ - ١٤.
(٢) سورة المجادلة ٦٠ / ٤.
(٣) سورة الطلاق ٦٥ / ١.
(٤) سورة التوبة ٩ / ١١٢.

التقاطع والتدابر، وفى ذلك يقول ربنا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

وقد سبق أن ذكرنا الكثير من حقوق الأخوة فى الله (٢)، ولنذكر من هذا حديث رسول الله ﷺ الذى رواه مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - وفيه يقول عليه السلام : «لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا، ولاتباغضوا، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض،وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يحقره ، ولا يخذله ، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه».

والنجش : أن يزيد فى ثمن سلعة ينادى عليها فى السوق ونحوه، ولا رغبة له فى شرائها بل يقصد أن يغرَّ غيره، وهذا حرام.

والتدابر : أن يعرض عن أخيه، ويهجره، ويجعله كالشئ الذى وراء الظهر، والدبر.

إن الاعتداء على أموال الناس، ودمائهم، وأعراضهم أمر فظيع لا يخفى على أحد، والظلم فيه ظلم صارخ كذلك، والآيات، والأحاديث وأقوال السلف فى ذلك أكثر من أن تحصر، لأن هذا اللون من الاعتداء والظلم يؤدى - وبسرعة - إلى إهلاك الأمم ودمارها، ولا تنتظم معه حياة ولا تستقر به جماعة، إنه يقود الناس إلى الفوضى، ويذهب من حياتهم الأمان، والسلام، والرخاء، والهدوء، ويجعلها

(١) سورة الحجرات ٤٩ / ١١.

(٢) فى الباب الأول : الأخوة وحقوقها.

جـحيـمًا لا تطاق، وكـيـف يحيـا الناس وهم غـيـر آمنين على دمـائهم وأعراضهم وأموالهم ؟ وياويل الظالمين فى موقف الحساب!!.

يقول رسـول الله ﷺ : «أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفـلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتى وقـد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فـيعطى هذا من حسناته، وهذا من حـسناته فإن فنيت حـسناته قبـل أن يقضى مـا عليه أخـذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» (١).

ولذلك حذر الرسول ﷺ من الظلم كل التحذير فقال صلوات الله وسلامـه عليه : «اتقوا الظلم فإن الـظلم ظلمات يوم القيامـة» وقال : «اتقوا الظلم مـا استطعتم فإن العـبد يجىء بالحسنات يوم القيـامة يرى أنها سـتنجيـه ، فما زال عـبد يقـول : يارب ظلمنى عبـدك مظلمة، فيقول: امـحوا من حسناته، وما يزال كذلك حتى مـا يبقى له حسنة، من الذنوب [أي: بسـبب الذنوب الـتى أفنت حـسناته] وإن مـثل ذلك كسَفْر [أي: كقوم مسـافرين] نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم ليحتطبوا فلم يلـبثوا أن حطبوا ، فأعظموا النار، وطبخوا ما أرادوا، وكذلك الذنوب» (٢).

أى: أن الذنوب تتجمع شيـئًا فشيئًا الى أن تصيـر مثل هذا الحطب الكثير الذى جمعه القوم.

ويرشدنا ﷺ إلى الحل والطريق الصحيح : ذلكم هو أن يطلب من ظلم

---

(١) رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه -.

(٢) رواه أبو يعلى من حديث ابن مسعود، ورواه أحمد، والطبرانى بإسناد حسن.

إنسانًا أن يعفو عنه قبل فوات الأوان . . يقول رسول الله ﷺ : «من كانت عنده مظلمة لأخيه : من عِرْض أو من شىء، فليتحلله منه اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» (١).

إنه الموقف الذى لا تضيع فيه الحقوق، قال - تعالى - : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٢).

وقال رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» والجلحاء : هى التى لا قرن لها، يؤخذ حقها من الشاة التى لها قرن حيث نطحتها وآذتها.

ولنتأمل هذه الصورة التى رسمتها ألفاظ هذا الحديث الذى رواه الشيخان عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وفيه يقول رسول الله ﷺ : «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين» فالذى اقتطع من أخيه ظلمًا مقدار شبر من الأرض يكلف يوم القيامة بحمل هذا من سبع أرضين، فيأتى به كالطوق فى عنقه.

وروى مسلم عن أبى أمامة «إياس بن ثعلبة الحارثى» - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة»، فقال رجل : وإن كان شيئا يسيرًا يا رسول الله ؟ فقال : «وإن قضيبًا من أراك»

(١) رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه -.

(٢) سورة الأنبياء ٢١/ ٤٧.

أى : وإن كان هذا الشئ عوداً من شجر الأراك، وهو الذى يستاك بأعواده، وهذا هو ابن اللتبية، قصته مشهورة معلومة : روى الشيخان عن أبى حميد : عبد الرحمن بن سعد الساعدى - رضى الله عنه - قال : استعمل النبى ﷺ رجلا من الأزد يقال له : ابن اللتبية على الصدقة [أى : على جمع الزكاة] واسم هذا الرجل عبد الله، فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أُهدى إلىَّ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله، فيأتى فيقول : هذا لكم، وهذا هدية أهديت إلى، أفلا جلس فى بيت أبيه أو أمه حتى تأتيه هديته، إن كان صادقًا، والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقى الله - تعالى - يحمله يوم القيامة، فلا أعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رُؤى بياض إبطيه فقال : اللهم هل بلغت.

والرغاء : صوت الإبل، والخوار : صوت البقرة، واليعار : صوت الشاة، يأتى يوم القيامة يحمل هذه الأنعام تفضحه بأصواتها فى هذا الموقف المشهود.

إن الظلم بلاء فى الدنيا، وبلاء فى الآخرة، وقد جاء فى الحديث القدسى : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا [أى : لا يظلم بعضكم بعضًا] ومن واجب الأمة كلها أن تتعاون فى رد الظلم عن المظلومين، وقد قال رسول الله ﷺ : «انصر أخاك ظالما أو مظلومًا»، فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومًا، أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره؟ قال : «تحجزه ، أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره».

الفصل الثالث

إن الله لا يحب المعتدين

الفصل الثالث

إن الله لا يحب المعتدين

(سورة البقرة ٢/١٩٠)

هذا هو الصنف الثالث من الأصناف الذين يبغضهم الله ولا يحبهم، إنهم المعتدون. فما هو الاعتداء ؟ وما هى مظاهره ؟ ولماذا لا يحب الله المعتدين ؟؟

أما الاعتداء فهو : مجاوزة الحد ، ولذا يقال : عدا عليه واعتدى : أى ظلمه، وعدا اللص على الشيء: سرقه، وعدى فلان عن الأمر : خَلاه وانصرف عنه، وعدى الشيء : تجاوزه إلى غيره ، فالمعتدون - إذن -: هم المتجاوزون للحد، المنصرفون عن الأمر الإلهى إلى غيره من أوامر الشياطين. والاعتداء لون من ألوان الظلم، سبق الحديث عنه فى الفصل السابق بهذا الاعتبار، ورأينا هناك قول الله تعالى - بعد تشريع الطلاق -: ﴿**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ وقوله : ﴿**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ إلى غير ذلك من الآيات التى جاءت عقب تشريعات من تشريعات الله التى أصلح بها الزمان، والمكان، والبلاد، والعباد، يذكر لنا فيها ربنا أن هذه حدوده: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾**﴾؛ ولذا فقد أعقبنا الحديث عن الظلم بالحديث عن الاعتداء؛ لأنه مظهر من مظاهر الظلم الواضح الذى لا يليق بأهل الإيمان، إنما هو من علامات من كفر بالله، أو من خانته نفسه، واستولى عليه شيطانه، وانحرف عن طريق مولاه فى غفلة من الزمان لم يلتفت فيها إلى أنه أمام ربه موقوف، وعن كل ما عمل محاسب، حتى فاجأه الأجل فندم، ولات ساعة مندم.

فمن اعتدى على أموال الناس، وأعراضهم ودمائهم، فقد باء بالخسران المبين وقد ذكرنا طرفًا من ذلك فى الحديث عن الظلم والظالمين.

ومن الاعتداء المنهى عنه مـا جاء فى قول الله - تعالى - : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ إلى أن يقول : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [1].

فانظر إلى هذا الأدب الرفيع الذى جاء به دين الإسـلام من معاملة أعداء الله بالمثل دون زيادة، فمن زاد فهو معتد، لا يحبه الله، ولذلك حرم الإسلام المثلة، والغلول : أى أن تمثل بـالأعداء، وتأخـذ أموالهـم بغيـر حق إلا بحق القتال والغنيمـة، أو الفئ، كما حرم قتل النساء والصبـيان والشيوخ الذين لا رأى لهم، كذلك حرم قـتل الرهبان وأصحاب الصوامع، وتحـريق الأشجار، وقتل الحيوان بغير مصلحـة، ولهذا جاء فى صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول للغزاة : «اغزوا فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا، ولا تمثِّلوا، ولا تـقتلـوا الوليد، ولا أصحـاب الصـوامع» - أى: المعتكفون فى الصوامع للعبادة من أهل الكتاب -.

وفى الصحـيحين عن ابن عمـر قال : وجدت امرأة فى بعض مـغازى النبى ﷺ، مقتولة ، فأنكر رسول الله ﷺ ، قتل النساء والصبيان.

والآيات تحمل الحثَّ والحضَّ على قتال أعداء الله، ولننظر إلى قوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وقوله : ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ وقوله : ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ وقوله : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ وكلها كلمات ذات دلالات وإيحاءات، تحث المـؤمنين وتحملهم على قـتال عدو اللـه وعدوهم، ومع ذلك لا ترى فيها سوى الاعتدال والمعاملة بالمثل، والشدة - فقط-، على

(١) سورة البقرة ٢ / ١٩٠ - ١٩٤.

أعداء الله الذين حملوا سلاحهم ليصدوا عن سبيل الله، أما غيرهم من النساء والأطفال، والشيوخ الذين لا رأى لهم فى القتال، والعُبَّاد المتفرغين للعبادة، فليس لأهل الإسلام عليهم من سبيل، ولذلك إذا ما تم النصر، وضربت الجزية، لاتؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح فحسب، عنوان استسلامهم، وانقيادهم، وتركهم القتال والعناد للمؤمنين ودعوة الحق، فمن اعتدى وقاتل من لم يقاتل، أو أخذ مالا بغير حقه، أو قطع شجرًا، أو قتل حيوانًا لغير مصلحة، فقد ارتكب إثمًا عظيمًا، وهو من المعتدين الذين لا يحبهم الله رب العالمين.

ولنقارنْ بين هذا القول، وهذه الرحمة بالإنسان والحيوان والنبات والأشجار وكل المخلوقات، وما تراه من حروب اليوم التى تحمل الدمار والخراب، وتقضى على الأخضر واليابس ، ولا ترحم طفلا رضيعًا، ولا شيخًا فانيًا، ولا امرأة لا حيلة لها.

ألا إن هذه الدنيا لا تصلح إلا بالإسلام ولا يحميها من اعتداء أهل الباطل إلا حملة النور من أتباع القرآن العظيم الذى أسعد الله به هذه الدنيا فترة طويلة من الزمان، وما زال مستعدًا لنقل هذه الإنسانية الحائرة المعذبة من حيرتها وشقائها إلى رحاب السكينة والرحمة والسعادة والأمان.

بل إن الإسلام - وهو ينهى عن العدوان - يبلغ القمة الباسقة، إذ يلفت أنظار أتباعه إلى أن بغضهم لأهل الكفر يجب ألا يكون سببًا يدفعهم إلى الاعتداء عليهم : فهذا هو رسول الله ﷺ وقد صده المشركون هو وأصحابه عن البيت الحرام فرجع بأصحابه بعد أن عقد مع المشركين صلح الحديبية، وبينما هم في المدينة يعانون الألم والحزن والضيق لحرمانهم من

تحقيق أملهم فى الطواف بالبيت، مرَّ بهم أناسٌ من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة فقال أصحاب النبى ﷺ نصدُّ هؤلاء كما صدنا أصحابهم فنزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (1).

وهذا كقوله بعد عدة آيات من هذه الآية فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إذ بالعدل قامت السموات والأرض، وما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، كما قال بعض السلف.

وإذا كنا قد عرفنا أن الاعتداء فى قتال أعداء الله لا يحبه الله، فلننتقل خطوة أخرى؛ لنرى صوراً أخرى للاعتداء والمعتدين.. ولعلنا قد مرَّ بنا أمثلة لأناس متنطعين، متزمتين، ولأناس منفلتين، لا يشبعون ولا يقنعون، الصنف الأول: هو الذى حرم على نفسه ما أحل الله، والثانى: هو الذى انكبَّ على ما أباحه الله من الطيبات فجعله جُلَّ همه، وغاية مطلبه، ومنتهى أمله فى هذه الحياة، وهذا وذاك لا يرضاه الإسلام، وكلا الصنفين قد اعتدى وتجاوز ما أمر الله به، وفى ذلك يقول تعالى فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (2).

---

(1) سورة المائدة ٥ / ٢.

(2) سورة المائدة ٥ / ٨٧ - ٨٨.

فالله ينـادى المؤمنين لينهاهم عن تحـريم ما أحلَّ الله لهم من الطيـبات، وكما قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١) ولينهاهم كذلك عن الاعتداء فى تناول هذه المباحات فإنها ليست كل هَمِّ المسلم، إذ مـا مـلأ ابـن آدم وعاء شـرًا مـن بطنه، وحـسب ابن آدم لقيـمات يقمن صلبـه، فإن كان ولابد فـاعل فثلث لطعامـه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسـه، وهذا كقـوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ والإسراف لون من الاعـتداء كـما هو واضح، ولعل مـا جاء فى سبب نزول الآيات يكشف لنا النقاب ، وينير لنا الطريق.

فقد رُوى عن أنس - رضى الله عنه - قـال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها - أى عدوها قليلة - وقالوا : أين نحن من النبى ﷺ وقد غـفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخـر ؟، قال أحـدهم : أما أنا فـأصوم الليل أبدًا، وقـال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبـدًا ولا أفطر، وقال آخر : وأمـا أنا فأعـتزل النسـاء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال : «أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما - والله - إنى لأخشـاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصـوم وأفطر، وأصلى وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى» وفى هؤلاء نزلت الآيات الكريمات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ومما روى فى ذلك أيضًا ما روى عن عكرمة أن عثمان بن مظعون، وعلى ابن أبى طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالما مولى أبى حذيفة فى

(١) سورة الأعراف ٧ / ٣٢.

أصحابه تبتلوا - أى: انقطعوا للعبادة - فجلسوا فى البيوت واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح - أى: الملابس التى لا زينة فيها كلباس الرهبان - وحرَّموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويَلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل، وهموا بالإخصاء، وأجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار، فنزلت هذه الآية، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن لأنفسكم حقًا، وإن لأعينكم حقًا، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا»، فقالوا: اللهم سلَّمنا، واتبعنا ما أنزلت.

وفى الرواية التى ذكرناها من الصحيحين شاهد ودليل على ذلك. فدين الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط، وقد روى البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة» وفى رواية له: «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشىء من الدلجة، القصْدَ القصْدَ تبلغوا».

ومعناه أن من يتشدد، ويُحمِّلُ نفسه فوق طاقته يعجز، ولكن فليكن حاله كالمسافر يسير فى بعض الأوقات، ويستريح هو ودابته فى غيرها، فيصل إلى مقصوده بغير تعب، فإن المُنْبَتَّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى، فالذى أتعب دابته أهلكها فلا هو وصل إلى غايته، ولا أبقى دابته، وهذا هو الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص يُروى عنه أنه قال: أخبر النبى ﷺ أنى أقول: والله لأصومن النهار، ولأقومن الليل ما عشت فقال رسول الله ﷺ «أنت الذى تقول ذلك؟» فقلت له: قد قلته بأبى أنت وأمى يا رسول الله - أى فداؤك أبى وأمى - قال: «فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام

الدهر»، قلت : فإنى أطيق أفضل من ذلك، قال : «فصم يومًا وأفطر يومين»، قلت : فإنى أطيق أفضل من ذلك، قال : «فصم يومًا وأفطر يومًا، فذلك صيام داود - عليه السلام - وهو أعدل الصيام».

وفى رواية : هو أفضل الصيام، فقلت : فإنى أطيق أفضل من ذلك، فقال رسول الله ﷺ : «لا أفضل من ذلك»، يقول عبد الله : ولأنْ أكونَ قبلتُ الثلاثة الأيام التى قال رسول الله ﷺ أحب إلىَّ من أهلى ومالى.

وفى رواية : «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟» قلت : بلى يا رسول الله، قال : «فلا تفعل ، صم وأفطر ، ونم وقم ، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك [أى لمن يزورك] عليك حقًا، وإن بحسبك أن تصوم فى كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر»، فشددت فشدد علىَّ، قلت : يا رسول الله إنى أجد قوة، قال : «صم صيام نبى الله داود، ولا تزد عليه» قلت : وما كان صيام داود ؟ قال : «نصف الدهر»، فكان عبد الله يقول بعد ما كبر - أى كبر فى السن وضعف عن ذلك : - يا ليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ.

وفى رواية قال : أنكحنى أبى امرأة ذات حسب، وكان يتعاهد كنته - أى امرأة ولده - فيسألها عن بعلها فتقول له : نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشًا، ولم يفتش لنا كنفًا منذ أتيناه - أى لم يكشف لنا سترا - وهى تعبر بذلك عن اشتغاله بالعبادة وعدم التفاته إليها ليؤدى إليها حقها، فلما طال ذلك عليه، ذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: «ألقنى به»، فلقيته بعد فقال : «كيف تصوم؟» قلت: كل يوم ، قال: «وكيف تختم ؟» -أى القرآن- قلت: كل

ليلة، قال : «فصم صوم نبى الله داود، فإنه كان أعبد الناس، واقرأ القرآن فى كل شهر»، قلت : يا نبى الله إنى أطيق أفضل من ذلك، قال : «فاقرأه فى كل عشر»، قلت : يا نبى الله إنى أطيق أفضل من ذلك، قال : «فاقرأه فى كل سبع، ولا تزد على ذلك»، فشددت فشُدِّد علىَّ، وقال لى النبى ﷺ : «إنك لا تدرى لعلك يطول بك عمر»، قال : فصرت إلى الذى قال لى النبى ﷺ، فلما كبرت وددت أنى كنت قبلت رخصة نبى الله ﷺ.

وقريب من هذا ما رواه البخارى عن وهب بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : آخى النبى ﷺ بين سلْمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة - أى لابسة ثياب المهنة والعمل، تاركة للزينة - فقال : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال له : كُل، فإنى صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل - لأنه كان صيام تطوع - فأكل، فلما كان الليل، ذهب أبو الدرداء يقوم - أى لصلاة الليل - فقال له : نم ، فنام، ثم ذهب يقوم ، فقال له : نم ، فلما كان آخر الليل قال سلمان : قم الآن، فصليا جميعًا، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذى حق حقه، فأتى النبى ﷺ فذكر له، فقال النبى ﷺ : «صدق سلمان».

لقد حذر الإسلام من المغالاة والتشدد فى دين الله وعَدَّ ذلك من الهلاك الذى يهلك المغالين والمتشددين فى غير موضع التشدد، وفى ذلك يروى الإمام مسلم عن ابن مسعود - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون - قالها ثلاثا -» والمتنطعون هم، المتعمقون، المغالون ، المتشددون فيما لا يجوز التشدد فيه، نعم من حق المسلم

بل ومن الواجب عليه أن يلتزم بهدى الله وهدى رسوله، وأن يقتفى آثار سلف الأمة الصالح وقدوتهم رسول الله ﷺ، ولكن هذا لا يعنى أن يشدد على نفسه فى القيام والصيام وألوان العبادات بما يؤدى به بعد فترة وجيزة إلى السآمة والملل، فخير الأعمال أدومها وإن قَلَّ، هذا وقد سرَتْ فى قوم لا خلاق لهم، أكذوبة نشروها فى كل مكان، ورموا بها كل صالح ملتزم بما جاءه عن ربه وعن رسوله، إذ قالوا لكل مسلم من هذا اللون أنت رجل متطرف، وسموا شبابنا المسلم بالمتطرفين، ووقفوا يتهمون كل من نادى لتحكيم شرع الله، والعودة إلى دينه بهذه التهمة الجائرة ، والمتطرفون حقا هم هؤلاء الذين ساروا فى طريق الغواية، وانضموا الى جند الشيطان، وأصبحوا حربا على الله وعلى رسوله وعلى كتابه وعلى المؤمنين ويدَّعُون مع ذلك أنهم أعلم أهل الأرض بدين الله، فبئس ما يصنعون. .

نعم الإسلام يأمر بالتوسط والأعتدال، وليس ما يقوله هؤلاء المعاندون الرافضون لشرع الله وهديه من التوسط أو الاعتدال فى شىء، بل هو الظلم المبين، والجهل بحقائق هذا الدين.

وإذا كان ديننا يطالب المسلمين بالاعتدال وعدم المغالاة، وألا يطغى فى المسلم جانب على جانب، فهناك الوجه المقابل وهو الإسراف، والتكاسل، والتراخى فى الأعمال الصالحة، والانكباب على ملذات الدنيا، وسوف نتناول ذلك فى الفصل القادم، حين نتناول بالشرح والإيضاح قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ولكن بقى فى موضوع الاعتداء الذى لا يحبه الله : الاعتداء فيما شرعه الله، بأن يؤدى على غير الوجه الذى أمر الله به وشرعه، ومن ذلك: أن يسأل الله أن ييسر له مالا يباح له، أو أن يرزقه منزلة لا تليق إلا بالأنبياء، أو أن يتوضأ فيغسل أربع مرات بدل ثلاث، إلى غير ذلك، وفى

هذا يقول الله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (1).

وفى ذلك يروى الإمام أحمد أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال : يابنى سل الله الجنة وعُذْ به من النار، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يكون قوم يعتدون فى الدعاء والطهور».

كما رُوى عن سعد بن أبى وقاص أنه سمع ابنًا له يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألَك الجنة ونعيمها واستبرقها، ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال : لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوذت به من شر كثير، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء»، وفى لفظ : «يعتدون فى الطهور والدعاء»، وقرأ هذه الآية : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ، وإن بحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول أو عمل.

وإنا لنسأل الله ذلك، فإنه نعم المجيب.

والاعتداء بكل ألوانه وأشكاله خلق مقيت بغيض، وكما وصف الله به من تعدَّى من أهل الإسلام حدود الأدب فى القتال وفى تحريم بعض الطيبات، وفى عدم الالتزام بهدى الله وهدى رسوله فى الدعاء أو الطهور، وصف به أهل الكفر والضلال، يقول تعالى : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (2).

---

(1) سورة الأعراف 7 / 55.

(2) سورة ق 50 / 24 - 26.

وقال فى سورة القلم : ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ (١).

فانظر كيف وضع هذه الصفة بين صفات كلها ذميم، لا تليق بالإنسان العاقل.

واعتداء الكفرة سببٌ لحرمانهم من توفيق الله وهدايته، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢).

وقال فى المشركين فى سورة التوبة : ﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ (٣).

وقال فيمن تجاوز ما أحلَّ الله له من زوجة، وما ملكت يمينه إلى ما حرم الله، وهو يذكر صفات المؤمنين المفلحين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ (٤).

وإذا كان الاعتداء من صفات الكفرة الفجرة، فإن أهل الإيمان يجب أن يبتعدوا عنه، وألا يتصفوا به، وعليهم التزام المنهج الصادق الذى جاء به كتاب ربهم، وأوضحته فى جلاء سنة نبيهم - صلوات الله وسلامه عليه -.

والاعتداء كله لا يحبه الله، ولا يحب أصحابه، فهو لون من ألوان الظلم، والله لا يحب الظالمين ، كما أنه لا يحب المعتدين.

---

(١) سورة القلم ٦٨ / ١٠ - ١٣.

(٢) سورة يونس ١٠ / ٧٤.

(٣) سورة التوبة ٩ / ١٠.

(٤) سورة المؤمنون ٢٣ / ٤ - ٧، والمعارج ٧٠/ ٢٩ - ٣١.

الفصل الرابع

إنه لا يحب المسرفين

١ - الإسراف مظهر من مظاهر الكفر

٢ - الإسراف فى سلوك المؤمنين

(أ) الإسراف فى المعاصى

(ب) الإسراف فى الطعام والشراب

(جـ) الإسراف فى الملبس

الفصل الرابع

«إنه لا يحب المسرفين»

١ - الإسراف مظهر من مظاهر الكفر

الإسراف اعتداء، والله لا يحب المعتـدين، كما أنه لا يحب المسرفين.. فما هو الإسراف ؟ وما هى مظاهره وألوانه ؟ ولماذا لا يحب الله المسرفين.

الإسراف : مجاوزة الحد فى كل أمر، يقـال سرفت الأم ولدها : أفسدته بكثرة اللبن، وسرف الشيء : أغـفله وأخطأه، وسرفُ الماء: ما ذهب منه فى غير سقى ولا نفع، ويقال : فـلان سرف العقل أى : قليله، وسَرِف الفؤاد: أى غافله ، وأسـرف فى ماله، وأسـرف فى القتل، أى جـاوز الحد فى ذلك كله، والقصدُ والاعتدالُ يقابلهما : السرف، ومجاوزةُ الحد.

وأول مظهر من مظاهـر الإسراف هو ما تراه فى هؤلاء الذين أسـرفوا فى الكفـر والضـلال، وعـاندوا المرسلين، وحـاربوا دعـاة الحق، ولا حـقـوهم بالإيذاء، وحاولوا إطفـاء نور الله بأفواههم، ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [١]. ترى ذلك فى وصف الله لـفرعـون، حـيث يقـول ربنا : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [٢] وحيث يقول : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [٣].

وتجد ذلك فيما حكاه الله من قـول مؤمن آل فرعون، وهو ينصح قومه إذ همُّوا بقتل موسى - عليـه السلام - فقال لهم : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا

---

(١) سورة التوبة ٩ / ٣٢.

(٢) سورة الدخان ٤٤ / ٣٠ ، ٣١.

(٣) سورة يونس ١٠ / ٨٣.

يُصبكُم بعضُ الَّذي يَعدُكُمْ إنَّ اللَّهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وقال لهم : ﴿ ولَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ من قَبْلُ بِالْبَيِّنَات فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِه حَتَّىٰ إذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ من بَعْده رَسُولاً كَذَلكَ يُضلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ وقال لهم : ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ .

فانظر إلى هذه الدعـوة المخلصة الصادقة، والتى قوبلت بـالمكر والتآمر : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ (١) فهل بعـد هذا إسراف ؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ، ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ ،﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ بهذه الكلمات الصادقة وأمثالها نصح الرجل قومه، وأراد لهم الخير، ولكنهم رفضوا دعوة الله .

وفى تاريخ النبوات، والرسالات هذا اللون من الإسـراف فى الكفر، تجد هذا فى قول صالح - عليه السلام - لقومه وهو ينصحهم فيقول ما حكاه الله عنه : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾(٢) .

وفى وصف الله لقوم لوط - عليـه السلام - يقول ربنا : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ

(١) سورة غافر ٤٠ / ٤٥ - ٤٦ ..

(٢) سورة الشعراء ٢٦/ ١٤٦ - ١٥٢ .

لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴿٨٠﴾ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾ (١).

وإسرافهم هذا اعتداء وأى اعتداء، ولذلك قال لهم لوط - عليه السلام - : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين ﴿١٦٥﴾ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ (٢).

وهو الجهل بعينه ، وقد قال تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴿٥٤﴾ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾ (٣).

ولذلك أهلكهم الله بإجرامهم وإسرافهم، شأنه - تعالى - مع المجرمين والمسرفين، كما قال -سبحانه- وهو يحكى لنا ما كان بين إبراهيم -عليه السلام- والملائكة : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴿٣١﴾ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴿٣٢﴾ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴿٣٣﴾ مسومة عند ربك للمسرفين ﴿٣٤﴾ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴿٣٥﴾ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴿٣٦﴾ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ (٤).

وما حدث لقوم لوط من إهلاك وتدمير ، هو سنة الله مع المسرفين الذين يحادون الله ورسله، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴿٧﴾ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴿٨﴾ ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ﴾ (٥).

---

(١) سورة الأعراف ٨/ ٨٠ ، ٨١.

(٢) سورة الشعراء ٢٦ / ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) سورة النمل ٢٧ / ٥٥ ، ٥٦ .

(٤) سورة الذاريات ٥١ / ٣١ - ٣٧.

(٥) سورة الأنبياء ٢١ / ٧ - ٩ .

وقد حظى بنو إسرائيل بأكبر نصيب من هذا الوصف، فقد كفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق، واعتدوا على كل ما جاء به أنبياؤهم؛ ولذلك قال - تعالى - بعد أن ذكر قصة بنى آدم : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (١) .

أما كفار قريش فقد وقفوا من دعوة الإسلام موقف المعاند المكذب، وبالغوا فى عدائهم لرسول الله ﷺ وصحبه الكرام، وطاردوه ، وطاردوهم حتى ألجأوهم للهجرة إلى الحبشة مرتين، ثم كانت الهجرة الكبرى إلى طيبة الطيبة، دار الإيمان، ولم يترك كفار قريش سبيلا للإيذاء إلا وسلكوه، واتهموا النبى العظيم بكل ما حلا لهم، وزينته الشياطين لهم، ولهذا هددهم الله وتوعدهم لإسرافهم وجهلهم وحماقتهم فقال فى مطلع سورة الزخرف : ﴿حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ④ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑦ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢) .

يقول قتادة فى قوله تعالى : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله - تعالى - عاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو ماشاء الله من ذلك.

---

(١) سورة المائدة ٥ / ٣٢.

(٢) سورة الزخرف ٤٣ / ١ - ٨.

يقول ابن كثير : «وقول قتادة لطيف المعنى جدًا، وحاصله أنه يقول فى معناه : إنه - تعالى - من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدى من قدَّر هدايته وتقوم الحجة على من كتب شقاوته» [1].

إذن : فالإسراف مظهر من مظاهر الكفر، بل هو المظهر الجلى فى سلوك الكافرين، ولهم فى ذلك أساليب شيطانية خبيثة، ولكن الله يتولى برحمته أهل الإيمان لينصرهم بنصره، ويحفظهم من كيد هؤلاء الظالمين الكافرين المسرفين.

٢- الإسراف فى سلوك المؤمنين

(١) الإسراف فى المعاصى

إذا كان الإسراف هو مجاوزة الحد فى كل أمر، وكان الكفرة فى مقدمة من تجاوز حده، واعتدى على أصحاب الرسالات، وحاول إطفاء نور الله، فإن التجاوز للحد يمكن أن يقع فى سلوك المؤمنين، وإن وقع فهو خطأ يطلبون من ربهم أن يغفره لهم، وقد قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [2].

وهذه دعوة الله لعباده الذين أسرفوا على أنفسهم بالذنوب، والمعاصى ألا يقنطوا من رحمة الله، وأن يطلبوا منه المغفرة، وأن يتوبوا إليه توبة صادقة قبل

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران ٣ / ١٤٦ - ١٤٨.

فوات الأوان، يقول ربنا : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ (١) .

فمن لم يستجب لهذا النداء، ومن لم يدخل فى هذا الباب : باب التوبة النصوح، فهو جاهل أحمق، وليس هذا من شأن أهل الإيمان، فهم يشعرون أن الذنب الذى يرتكبونه جبل يكاد ينقض عليهم؛ لهذا يلجأون لربهم بالضراعة والبكاء والاستغفار والإنابة، ولهذا قال - تعالى - فى صفات المتقين : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

وقال - سبحانه - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (٣) فبصيرتهم مستنيرة بنور الله، وإن اعترتهم لحظات من الغفلة فوقعوا فى خطأ، عادوا سريعًا إلى ربهم بالإنابة والتوبة، أما هؤلاء المنطلقون فى عالم الشهوات، المنكبون على الارتشاف من كئوس المتع الرخيصة، فهم على خطر عظيم، وربما فاجأهم الموت وهم على ماهم فيه، فلا تنطق ألستهم بكلمة التوحيد فيُختمُ لهم بسوء الخاتمة والعياذ بالله، فيا من أسرفتم على أنفسكم بالمعاصى، ويامن غفلتم عن الله رب العالمين، ويا من عشش الشيطان فى قلوبكم فصرفكم عن ربكم، وأنساكم خالقكم عودوا إلى الله وأصيخوا له السمع، وألقوا فى محرابه القلوب، واستمعوا إليه وهو يناديكم ليأمركم فيقول: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

(١) سورة الزمر ٣٩ / ٥٣ ، ٥٤.

(٢) سورة آل عمران ٣ / ١٣٥ .

(٣) سورة الأعراف ٧ / ٢٠١ .

الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

ولهذا جاء التحذير من الغفلة عن الله، ومن الانشغال بالمال والولد، يقول ربنا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

ويقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣) إلى غير ذلك من الآيات التى تدعو المؤمن إلى الاعتدال ، وعدم الوقوع فى الذنوب ، والإسراف فى المعاصى، وتدعوه - كذلك - إلى التوبة النصوح، والمبادرة إلى الإنابة ، وطرد الغفلة والنسيان.

ولهذا كان النبى العظيم - صلوات الله وسلامه عليه - الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يسأل ربه - كثيرًا - المغفرة من الغفلة والجهل والنسيان، والخطأ، والعمد، وظلم النفس، وضراعاتهُ فى هذا أكثر من أن تحصى فى هذا الموضع من البحث، ترى من ذلك ما علمه لصاحبه الصديق - رضى الله عنه -، ففى الحديث المتفق عليه أنَّه قال لرسول الله ﷺ: علمنى دعاءً أدعو به فى صلاتى، قال : «قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم».

(١) سورة الزمر ٣٩/ ٥٤ - ٥٨.   (٢) سورة المنافقون ٦٣ / ٩ - ١١.

(٣) سورة التغابن ٦٤ / ١٤، ١٥.

ومن دعائه ﷺ ما رواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء : «**اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى، اللهم اغفر لى جدى وهزلى، وخطئى وعمدى، وكل ذلك عندى، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منى، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شئ قدير**» .

ولأهل الإيمان فى رسولهم أسوة حسنة، وهم يعلمون أن كل تقصير إن لم يتدارك بالاستغفار والعمل الصالح جرَّ إلى ما هو أعظم منه ، وأن الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى، وكم غرت الأمانى قومًا فباءوا بالخسران المبين، يقول ربنا فى بيان حال من غفلوا حتى فاجأهم أمر الله : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١) .

يقول عكرمة فى تفسيره لقول الله - تعالى -: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية : ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ : يعنى: بالشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ : يعنى: بالتوبة، ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ : يعنى: فى أمر الله، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ : يعنى: بالتسويف، ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ : يعنى: الموت، ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ : يعنى: الشيطان.

ولهذا كانت الجنة لمن خالف هواه واتبع أمر مولاه، قال تعالى :

---

(١) سورة الحديد ٥٧ / ١٣ - ١٥ .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (١).

وقال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : «إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم، فإن عاجلها ذميم، وآجلها وخيم، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب، فسوِّفْها بالتأميل والإرغاب، فإن الرغبة والرهبة إذا اجتمعا على النفس ذَلَّت لهما وانقادت».

وقال ابن السَّماك : «كن لهواك مسوِّفًا، ولعقلك مُسْعفًا، وانظر ما تسوء عاقبته، فوطِّنْ نفسك على مجانبته ، فإن ترك النفس، وما تهوى داؤها، وترك ما تهوى دواؤها ، فاصبر على الدواء، كما تخاف من الداء».

وقال الشاعر :

صبرت على الأيام حتى تولَّتِ
وألزمت نفسى صَبْرَها فاستمرَّتِ
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى
فإن أُطعِمَتْ تاقتْ، وإلا تسلَّتِ

وهذا كقول القائل :

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على
حبِّ الرضَاعِ، وإن تَفْطِمْه ينفطِمِ

(ب) الإسراف فى الطعام والشراب :

إذا كنا قد عرفنا أن تحريم الطيبات اعتداء، حرَّمه الله، وأنَّ من حرم هذا من المعتدين، والله لا يحب المعتدين، فإن الإسراف فى تناول الطيبات مضرة

(١) سورة النازعات ٧٩ / ٤٠ ، ٤١.

ومفسدة وبلاء وهلاك، وقد قال تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [1].

وقال رسول الله ﷺ «إياكم والبطنة، فإنها مفسدة للدين، مورثة للسقم، مكسلة عن العبادة» وقال على - رضى الله عنه - : إن كنت بَطِنًا - أى تحب أن تملأ بطنك من الطعام - فعد نفسك زَمِنًا - أى مريضًا مرضًا دائمًا -.

فكم من لقمة منعت أخاها

بلذة ساعة أكلاتِ دَهْرِ

وكم من طالبٍ يسعى لأمرٍ

وفيه هَلاكُهُ لو كَانَ يَدْرِى

ومن شأن المؤمن ألا يكثر من الطعام، فقد روى الشيخان عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «المسلم يأكل فى مِعًى واحد، والكافر فى سبعة أمعاء»، وفى رواية لمسلم قال : أضاف رسول الله ﷺ ضيفًا كافرًا، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فحلبت فشرب حِلَابها - أى لبنها - ثم أخرى فشرب حلابها، ثم أخرى فشرب حلابها، حتى شرب حلاب سبع شياه، ثم إنه أصبح فأسْلَمَ، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فشرب حلابها، ثم أخرى فلم يستتمه - أى لم يكمله - فقال رسول الله ﷺ : «إن المؤمن ليشرب فى مِعًى واحد، والكافر يشرب فى سبعة أمعاء»، وقد قال الأئمة بأن هذا مثل ضربه رسول الله ﷺ للمؤمن وزهده فى الدنيا، والكافر وحرصه عليها، فكأن المؤمن لتقلله من الدنيا يأكل فى مِعًى واحد، والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل فى سبعة أمعاء، فليس المراد حقيقة الأمعاء، ولا خصوص الأكل، وإنما المراد التقلل من الدنيا، والاستكثار منها،

(١) سورة الأعراف ٧ / ٣١.

فكأنه عبر عن تناول الطعام بالأكل، وعن أسباب ذلك بالأمعاء، ووجه العلاقة ظاهر.

وقال الإمام النووى - عليه رحمة الله - : «الصفات السبعة فى الكافر هى الحرص، والشَّرَه، وطول الأمل، والطمع، وسوء الطبع، والحسد، وحب السِّمَنِ».

وقال القرطبى : «شهوات الطعام سبع : شهوة الطبع، وشهوة النفس، وشهوة العين، وشهوة الفم، وشهوة الأذن، وشهوة الأنف، وشهوة الجوع، وهى الضرورية التى يأكل بها المؤمن، وأما الكافر فيأكل بالجميع».

وقد كان العقلاء فى الجاهلية والإسلام يمتدحون قلة الأكل، ويذمون كثرته، قال حاتم الطائى :

فإنك إن أعطيتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ

وفرجك، نالا منتهى الذمِّ أَجْمَعَا

وروى البخارى وابن أبى الدنيا عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : «أول بلاء حدث فى هذه الأمة بعد نبيها الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم، وجمحت شهواتهم».

وقد صدَقَتْ - رضى الله عنها - فإن الانكباب على ألوان الطعام والشراب يشغل المؤمن عن ربه، فلا يذكر الله إلا قليلا، فيضعف الإيمان عنده يومًا بعد يوم، وتستولى الشهوات عليه فتجمح به فتهلكه وترديه.

وما بالسِّمَنِ يقاس الناس، ولا بطُولِهم وعرضهم، فقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة» هذا هو

الكافر الذى يُدِلُّ بحجمه وقوته وكثرة طعامه وشرابه يأتى يوم القيامة مهينًا حقيرًا لا يساوى عند الله شيئًا، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [1].

فانظر إلى هذا التشبيه : ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ لتعرف أن همة الكافر لا ترتفع إلى أكثر من هذه الدنيا وما فيها من حظوظ عاجلة، وشهوات يَعُبُّ منها عبا، أما المؤمن فهو ينظر إلى النعيم الأعظم فى جنات النعيم، فلا يأخذ من دنياه إلا ما يبلِّغه لأخراه، ولهذا وجدنا رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - يرضى من الدنيا بالقليل مع أن الأموال كانت تأتيه من هنا ومن هناك، وعرُضتْ عليه الجبال أن تكون ذهبًا فأبى، وضرب من نفسه القدوة الصالحة لأمته..

روى ابن أبى الدنيا عن ابن بجير - رضى الله عنه - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال : أصاب النبى ﷺ جوعٌ يومًا، فعمد إلى حَجَرٍ فوضعه على بطنه، ثم قال : «ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رب مُكْرِمٍ لنفسه وهو لها مهين، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم !!».

فهل لأهل الإسلام فى رسول الله وأصحابه أسوة حسنة ؟ إذن فهذا هو ما كانوا عليه، وبه نجوا وفازوا، لم يعرفوا الترف، ولا الإسراف، ولا الشبع، وقد روى الشيخان عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال : ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام تباعًا حتى قبض، وفى رواية : قال أبو حازم : رأيت أبا هريرة يشير بإصبعه مرارًا، يقول : والذى نفسى

(١) سورة محمد ٤٧/ ١٢.

أبى هريرة بيده، ما شبع نبى الله ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا.

وروى البخارى عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - قال : ما رأى رسول الله ﷺ النقى - أى الخبز الأبيض - من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله، فقيل : هل كان لكم فى عهد رسول الله ﷺ منخل ؟ قال : ما رأى رسول الله ﷺ منخلا من حين ابتعثه الله - تعالى - حتى قبضه الله، فقيل : كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول ؟ قال : كنا نطحنه ، وننفخه فيطير ما طار، وما بقى ثريناه - أى بللناه وعجناه -.

وعن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال : ألستم فى طعام وشراب ما شئتم ؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه[1].

وروى الشيخان عن عروة عن عائشة - رضى الله عنها - أنها كانت تقول : «والله يا ابن أختى إنْ كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار ، قلت يا خالة: فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح - أى نوق أو شياه - فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه».

فأين هذا من الموائد الممتدة ، واللحوم من كل صنف، ما يلقى منه أكثر مما يأكل . . ؟ وأين هذا من الإسراف الذى تراه فى حفلاتنا وأفراحنا . . فاللهَ اللهَ فى ديننا، واللهَ اللهَ فى آخرتنا، وقد قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2].

---

(١) رواه مسلم والترمذى ، والدقل : ردئ التمر.

(٢) الأعراف ٧/ ٣١.

(جـ) الإسراف فى الملبس :

لقد امتن الله على الإنسان بنعمة الكسـاء واللباس والزينة التى يستمتع بها فقال سبحانه : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [1].

فجعل هذا آية من آياته، وعلامة على قـدرته وحكمته فى مخلوقاته، إذ جعل الإنسـان يميل بفطرته إلى سـتر عورته، ولا يكـتفى بهذا إنما يـبحث عن ألوان من الجمال والزينة فيـما يلبس، ولعل فى هذا ما يرد على من ادَّعى أن الإنسان حيوان ناطق، وأنه تطور من حالتـه الأولى - حالة الحيوانية - إلى ما هو عليه الآن، وهى نظرية يهودية حملها علماء اليهود إلى أنحاء الأرض فآمن بها كثـير من الناس، ولكن ما تراه من ميل بنى الإنسـان إلى التزين والبحث عن نواح من الجمـال فى ملابسهم، يرد على هؤلاء المغرضـين، لأن الحيوان من يوم خلقـه الله، لم يفكر فى أن يستـر عورة، فـضلا عن أن يتـجمل أو يتزين، ولذلك يقص علينا ربنا مـا كان من أمر آدم وحواء حين ذاقـا الشجرة المحرمة، وبدت لهمـا سوءاتهما، فيقـول سبحانه : ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [2] إلى آخر القصة، فبمجرد أن ظهرت لهما عـوراتهما بادرا مسرعين إلى أوراق الجنة ليسترا ما بدا منهما، جبلة وفطرة أودعها الله فى آدم وحواء فكانت فى بنيهما من بعدهما.

وقد نبه المولى - سبحـانه - إلى أن هذا اللباس الظاهر، يقابله لباس باطن هو : لباس التقوى، وهو خـير من الزينة والرياش والحلل الغالية، فإن المرء لو خلع هذا اللبـاس : لباس التقوى، يسـوء حاله . وتنكشف عوراته، ويبدو أمام الناس عريانًا، وإن ظن أنه مستور .

(١) سورة الأعراف ٧ / ٢٦.   (٢) سورة الأعراف ٧ / ٢٢.

وقد ذكَّر الله بنعـمته تلك : نعمـة اللباس والستر التى امـتاز بها بنو آدم فقال : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (١).

فهذه - إذن - نعمة من الله - سبحانه - على بنى الإنسان . . .

واللبـاس يطلب لثلاثة أشـياء : رفع الأذى، وسـتر العـورة، والجمـال والزينة، ورفع الأذى أمـر يوجبـه العقل كـما يوجـبه الشـرع، وستر الـعورة كذلك، وقـد كان من عادة المشـركين أن يطوفوا بالبـيت عراة، مبـالغة، فى التطهر : الـرجال بالنهار، والنســاء بالليل، وهذا حال لم يـأمر به دين، ولم ينزل به وحى، إنما هو أمر اخترعه أهل الجاهلية من عند أنفسهم، فنزل القرآن يأمر بمخالفتهم ويقول : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

فـأمر بسـتر العـورة عند كل صلاة، إذ لا تصح الصـلاة دون سـتـر العورة، وسـترها واجب فى كل حال، كما أباح التمتع بزينـة الحياة وما أخرج لعباده من الطيبـات، ما دام ذلك فى غير إسراف، ولا عجب ولا كبر، ولا خيلاء.

(١) سورة النحل ١٦ / ٨١ ، ومعنى قوله : سرابيل، أى ثيابا، وقوله : تقيكم الحر، أى : والبرد. وسرابيل تقيكم بأسكم : أى دروعا من الحديد المصفح تحميكم فى الحروب.
(٢) سورة الأعراف ٧ / ٣١-

أما الجمال والزينة - وهو مما يطلب من أجلهما اللباس، فإن التوسط فى ذلك هو الخير وهو الاعتدال الذى أمر به الإسلام، فإن اشتد كلفُه بمراعاة لباسه، قطعه ذلك عن مراعاة نفسه، وصار الملبوس عنده أنفس، وهو على مراعاته أحرص، وقد قيل فى منثور الحكم : البس من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك، واعلم أن المروءة أن يكون الإنسان معتدل الحال فى مراعاة لباسه من غير إكثار، ولا إطراح، فإن إطراح مراعاتها، وترك تفقدها مهانة وذل، وكثرة مراعاتها ، وصرف الهمة إلى العناية لها دناءة ونقص، وربما توهم بعض من خلا من فضل، وعُرِّى عن تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة ، لما يرى من تميزه بذلك على الأكثرين، وخروجه عن جملة العوام المسترذلين، وخفى عليه أنه إذا تعدى طوره، وتجاوز قدره كان أقبح لذكره، وأبعث على ذمه ، فكان كما قال المتنبى :

لا يعجبن مَضِيمًا حُسْنُ بزته

وهل يروق دَفِينًا جَوْدَةُ الكَفَنِ [(١)]

إن المسرفين فى ملابسهم، الذين جعلوا التزين غايتهم، أصبحوا عبيداً لهذا المتاع الرخيص فى هذه الدنيا، ولهذا دعا الرسول المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - عليهم بالتعاسة، والهلاك، والخيبة والخسران، فقال فى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إذا أُعطى رضى، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش. . الحديث» وعبد الخميصة : هو الذى أصبح عبداً لهذه الثياب الجميلة، يوجه لها كل همه، حتى أصبح لها عبداً، ولننظر إلى ما كان عليه النبى ﷺ، وما كان عليه أصحابه، وهم

(١) أدب الدنيا والدين : للماوردى ص ٣٤٠.

سادة الدنيا الذين علموها هذا الدين، ونشروا فيها هذا النور ، وما ذلوا وما هانوا، وما ألهتهم زخارف هذه الحياة. .

روى ابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: حدثنى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، قال : فجلست فإذا عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقرظ فى ناحية من الغرفة، وإذا إهاب معلق، فابتدرتْ عيناى، فقال : «ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟» فقال : يانبى الله، وما لى لا أبكى، وهذا الحصير قد أثّر فى جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار، وأنت نبى الله وصفوته، وهذه خزائنك ؟؟ قال : «يابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟؟»

وروى البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذى ينام عليه أدمًا - أى جلدا - حشوه ليف.

ورويا عن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنهما - قالت: أخرجت لنا عائشة - رضى الله عنها - كساءً ملبدًا -أى : مرقعًا- وإزارًا غليظًا، قالت : قبض رسول الله ﷺ فى هذين !!.

وروى البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصُّفَّة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار، وإما كساء ، قد ربطوا فى أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته !!.

وفى حديث مسلم عن عقبة بن غزوان، يقول - رضى الله عنه - وكان أميرًا على البصرة : ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ مالنا طعام إلا

ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا - أى جرحت وظهرت فيها القروح - فالتقطت بردة -أى: شملة- فشققتها بينى وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصرٍ من الأمصار، وإنى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيما، وعند الله صغيرا !!.

فأين هذا من مظاهر السرف والترف فى المأكل والملبس والمسكن التى استعبدت أبناء الإسلام ؟ وهل آن لهم أن يتأسوا بهؤلاء الرجال الأفذاذ ؟

لقد جاءت دعوة الإسلام إلى عدم الإسراف عامة شاملة فى كل أمر : فى الطعام والشراب، فى المأكل والملبس، وفى الإنفاق، قال تعالى : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [1].

وقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2]. وقال : ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [3] إلى غير ذلك من توجيهات الله فى الأمر بالاعتدال وعدم تجاوز الحد المعقول، فمن خالف ذلك فهو ظالم لنفسه، ومسرف، وإن استمر على ذلك جرَّه هذا إلى الهلاك والبوار والضياع، ومثل هذا لا يحبه الله، إنه لا يحب المسرفين.

---

(١) سورة الإسراء ١٧ / ٢٦ - ٢٩.

(٢) سورة الفرقان ٢٥/ ٦٧.

(٣) سورة الأنعام ٦ / ١٤١

الفصل الخامس

إنه لايحب المستكبرين

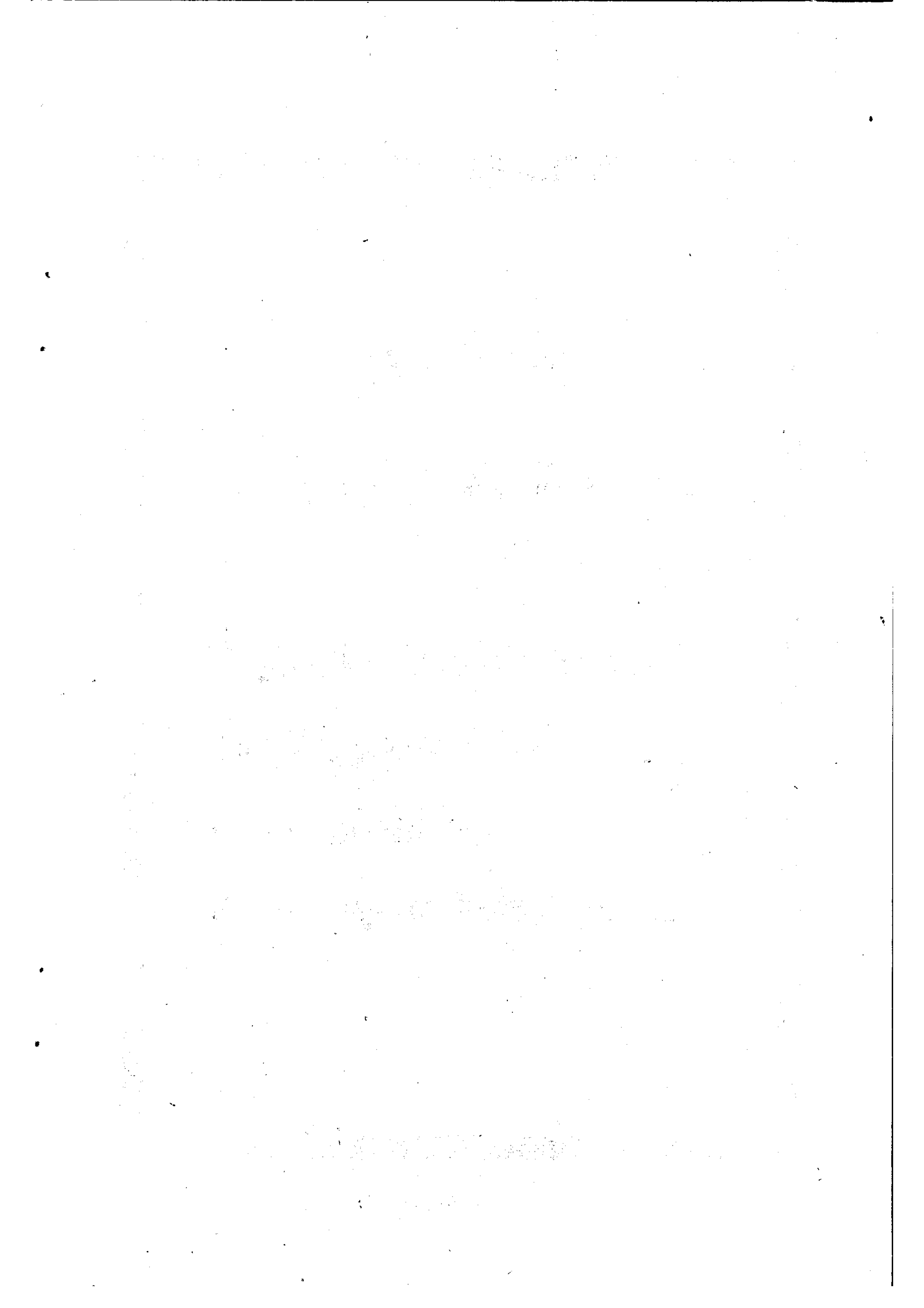
[النحل ١٦ / ٢٣]

١- المتكبرون وموقفهم من دعوات الأنبياء عليهم السلام.

٢- موقف المتكبرين من دعوة الإسلام.

٣- ندامة المتكبرين فى الآخرة.

٤- الكبر خلق مذموم عند الله ورسوله والمؤمنين.



الفصل الخامس

«إنه لا يحب المستكبرين»

لقد أخبرنا ربنا فى كتابه بأنه لايحب المستكبرين، فما هو الكبر ؟ وما هى آثاره الخطيرة فى حياة الفرد والجماعة ؟ وماذا جاء فى كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ من الذم والتنفير من هذه الصفة المقيتة، البغيضة إلى الله ورسوله والمؤمنين ؟؟

الكبر : هو العظمة والتجبر، وهذا وصف لا يليق بالعبد الضعيف العاجز، إنما هو وصف اتصف به الكبير المتعال، يقول جلّ وعلا : ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [1].

ويقول : ﴿ **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [2].

وفى الحديث عن أبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة - رضى الله عنهما - قالا : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله عز وجل : العز إزاره، والكبرياء رداؤه فمن ينازعنى عذبته» رواه مسلم، ورواه أبو داود وابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة وحده، قال : قال رسول الله ﷺ: «قال الله - تبارك وتعالى - : (الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحدًا منهما قذفته فى النار)».

والكبر طريق محفوف بالمخاطر؛ لأنه يجعل صاحبه يرى كل شىء فى غير موضعه الصحيح، فيأتى حكمه على الأشياء بناء على رؤيته تلك، فينحرف بذلك عن الجادة انحرافًا خطيرًا، وهو مرض وداء وبلاء يصيب

---

(١) سورة الحشر ٥٩ / ٢٣.

(٢) سورة الجاثية ٤٥ / ٣٦، ٣٧.

الفطرة الإنسـانية؛ فيطمس فـيهـا معالم الحق ، ويطفئ فـيهـا سراج الإيمان، ويأخذها إلى متاهات البـاطل، وحماقات الجهل، ويحرمـها لذة العبودية لله، وسعادة التواضع الذى يدعو أصحابه إلى المودة والمحبة، وأخوة أهل الإيمان.

وأول من استكبر على ربه، وامتنع عـن قبول الحق هو إبليس اللعين، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [1].

وفى سورة «ص» يقول ربنا : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [2].

وفى الأعراف : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [3] فكبره وإباؤه السجود لربه، وعناده أمام الإله العظيم، كان سببًا لطرده وإبعاده من رحمة ربه، وكان مستحقًا لذلك الصَّغار والذلة من الله رب العالمين.

---

(١) سورة البقرة ٢/ ٣٤.

(٢) سورة «ص» ٣٨ / ٧١ - ٧٨.

(٣) سورة الأعراف ٧ / ١٢ ، ١٣

١ - المتكبرون وموقفهم من دعوات الأنبياء عليهم السلام

وعلى طريقة إبليس هؤلاء الكفرة الفجرة الذين تنكروا للحق وعاندوا المرسلين، وجحدوا ما أنزل الله، فقوم نوح - عليه السلام - كما قال تعالى: ﴿جعلُوا أصَابعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وأصرُّوا واستَكْبَرُوا اسْتكْبَارًا﴾[١].

وقوم عاد غرتهم قوتهم فتاهوا بها وافتخروا، وامتنعوا عن قبول دعوة الحق فأهلكهم الله وأبادهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾[٢].

وقال ربنا فيما أنزله بهؤلاء المستكبرين: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[٣].

وقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾[٤].

والمستكبرون من قوم صالح - عليه السلام - هم الذين كفروا به وبرسالته، وصدوا عن سبيل الله، والقرآن يذكر لنا ذلك، ومما قال: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم

(١) سورة نوح ٧١/ ٧.

(٢) سورة فصلت ٤١/ ١٥، ١٦.

(٣) سورة القمر ٥٤/ ١٨ - ٢١.

(٤) سورة الحاقة ٦٩/ ٦ - ٨.

به كافرون ﴿٧٦﴾ فعقروا النّاقة وعتوا عنْ أمر ربّهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرْسلين ﴿٧٧﴾ فأخذتْهم الرّجفة فأصبحوا في دارهمْ جاثمين ﴿٧٨﴾ فتولّى عنْهمْ وقال يا قوم لقدْ أبْلغْتكمْ رسالة ربّي ونصحْت لكمْ ولكن لاّ تحبّون النّاصحين﴾[1].

وهؤلاء قوم شعيب - عليه السلام - ساروا على طريق الكفرة من قبلهم، ولم يستجيبوا لنداء الله، ودعاهم كبرهم إلى معاداة شعيب والمؤمنين معه ، يقول ربنا : ﴿قال الْملأُ الّذين استكْبروا من قوْمه لنُخْرجنّك يا شُعيْبُ والّذين آمنوا معك من قرْيتنا أوْ لتعودنّ في ملّتنا قال أو لوْ كنّا كارهين ﴿٨٨﴾ قد افْتريْنا على اللّه كذبًا إنْ عدْنا في ملّتكم بعْد إذْ نجّانا اللّهُ منها وما يكونُ لنا أن نّعود فيها إلاّ أن يشاء اللّهُ ربّنا وسع ربّنا كُلّ شيْءٍ علْمًا على اللّه توكّلْنا ربّنا افْتحْ بيْننا وبيْن قوْمنا بالْحقّ وأنت خيْرُ الْفاتحين﴾[2] إلى آخر ما قال فى سورة الأعراف.

وقال فى سورة هود : ﴿قالُوا يا شُعيْبُ ما نفْقهُ كثيرًا مّمّا تقُولُ وإنّا لنراك فينا ضعيفًا ولوْلا رهْطُك لرجمْناك وما أنت عليْنا بعزيزٍ ﴿٩١﴾ قال يا قوْم أرهْطي أعزُّ عليْكم مّن اللّه واتّخذْتُمُوهُ وراءكُمْ ظهْريًّا إنّ ربّي بما تعْملُون مُحيطٌ ﴿٩٢﴾ ويا قوْم اعْملُوا على مكانتكُمْ إنّي عاملٌ سوْف تعْلمُون من يأْتيه عذابٌ يُخْزيه ومنْ هُو كاذبٌ وارْتقبُوا إنّي معكُمْ رقيبٌ ﴿٩٣﴾ ولمّا جاء أمْرُنا نجّيْنا شُعيْبًا والّذين آمنُوا معهُ برحْمةٍ مّنّا وأخذت الّذين ظلمُوا الصّيْحةُ فأصْبحُوا في ديارهمْ جاثمين ﴿٩٤﴾ كأن لّمْ يغْنوْا فيها ألا بُعْدًا لّمدْين كما بعدتْ ثمُودُ﴾[3].

وهكذا كان فرعون الذى استكبر فى الأرض، ولم يؤمن بما جاء به موسى عليه السلام إنما ادّعى الربوبية :- «فقال : أنا ربكم الأعلى» - والألوهية :

---

(١) سورة الأعراف ٧ / ٧٥ - ٧٩.

(٢) سورة الأعراف ٧ / ٨٨ - ٨٩.

(٣) سورة هود ١١ / ٩١ - ٩٥.

قال تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

إنه الكبر الذى سيطر على قلب هذا الفرعـون الجاحد، دفعه إلى أن ينكر ويستهـزئ ويسخر ، ويعذب ويشـرد ويقتل ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وهى دعوى عريضة يطلقـها المجرمون فى كل زمان ومكان، يـريدون - بذلك إثارة العامة ومن لافـقه لهم ولا بصـيـرة لمطاردة الدعاة إلى الـله، ولا حيلة للدعـاة إلا الالتجاء والاحتماء بالله القوى القادر القاهر، ولذلك قال موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٢).

وقد ابتلى الله فـرعون وقومـه بالآيات البينات لعلهم يرجـعون ، ولكنه وقومه كذبوا، وعاندوا فحق عليهم العذاب والقرآن يذكر لنا ذلك فى كثير من سوره، ومن ذلك ما ذكره فى سورة الأعـراف من قول مفصل بين عناد القوم وجحودهم للحق، ومما قال : ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (٣).

---

(١) سورة القصص ٢٨ / ٣٨ - ٤٠.

(٢) سورة غافر ٤٠ / ٢٧.

(٣) الأعراف ٧ / ١٣٢ - ١٣٦.

إنه الاستكبار والإجرام والتكذيب بآيات الله، والغفلة عن الله، كلها أمراض حلت بالقوم فحجبتهم عن نور الله، ومثل هذا نجده فى سورة «المؤمنون» ونحن نقرأ قول الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾[1].

وهذه سنة الله فيمن كذب بآياته، واستكبر على الحق، وعتا وبغى وطغى .. ففى سورة العنكبوت بعد أن قصَّ الله ما قص من خبر نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وعاد وثمود، قال : ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].

يقول ابن كثير - عليه رحمة الله - فى تفسير ذلك : ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ : وهم عاد قوم هود - عليه السلام - كانوا يسكنون الأحقاف، وهى قريبة من حضرموت، وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية، شديد الهبوب تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عنان السماء : ثم تنكسه على أمِّ رأسه فتشدخه ، فيبقى بدنًا بلا رأس، كأنهم أعجاز نخلٍ منقعر، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ : وهم ثمود : قوم صالح ، كانوا يسكنون الحجر، قامت عليهم الحجة، وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوه سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا به، بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وهددوا نبى الله صالحا ومن آمن

(١) سورة المؤمنون ٢٣ / ٤٥ - ٤٨.

(٢) سورة العنكبوت ٢٩ / ٣٩ ، ٤٠.

معه، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ وهو قارون، صاحب الأموال الجزيلة، ومفاتيح الكنوز الثقيلة الذى طغى وبغى ، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال فى مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا فى صيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر» [1].

أما بنو إسرائيل، قوم موسى، الذين نجاهم الله من فرعون وجنده، ومنحهم من الآيات ما يجعل القلب المتحجر يلين ويهبط من خشية الله، فإنهم - مع ذلك كله - تكبروا وانصرفوا عن آيات الله، وعصوا ربهم، وقتلوا الأنبياء بغير حق فضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله.

وقد أفاض القرآن الكريم فى الحديث عن بنى إسرائيل : من بداية أمرهم حين فضلهم الله على العالمين، إلى أن عتوا، وبغوا، وانحرفوا عن الطريق الصحيح، فكانوا عبرة لمن اعتبر، قال تعالى : ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [2].

فلنكتف بإيراد بعض الشواهد على ما صار إليه حال القوم لكبرهم وعنادهم : ففى سورة البقرة يبدأ الحديث من الآية الأربعين ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ ويمتد الحديث، ويطول، يبين عناد القوم وقسوة قلوبهم، وانصرافهم عن هدى الله، إلى أن يقول فى الآية السابعة والثمانين وما بعدها ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم : لابن كثير ٣ / ٤١٣ .

(٢) سورة البقرة ٢ / ٢١١ .

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (١). إلى آخر ما قال جل وعلا، مما يبين كيف أن الكبر أصمهم وأعمى أبصارهم، وحجبهم عن نور الحق فصرفهم الله عن آياته، وتركهم لأنفسهم، ويا ويل من تركه الله لنفسه، فاللهم لا تتركنا لأنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ولا أكثر يا نعم المجيب.

وفي سورة الأعراف يقول تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ إلى أن يقول : ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢).

٢- موقف المتكبرين من دعوة الاسلام

إذا كان هذا هو ما آل إليه أمر المعاندين المستكبرين عبر القرون والدهور، فإن هذا العناد والاستكبار، قد وقف سدًا منيعًا أمام الرسالة الخاتمة، والنبى الخاتم محمد ﷺ، ولولا أن الله حافظ دينه ونبيه، وقد سبقت كلمته أن هذا هو الدين الشامل الخاتم لكل الأديان والرسالات، لوصل المجرمون الآثمون إلى غرضهم الخبيث ، ولكن الله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد كان أهل مكة من العرب يتمنون أن يرسل الله إليهم رسولا ليؤمنوا

(١) سورة البقرة ٢ / ٤٠، ٨٧ ، ٨٨.
(٢) سورة الأعراف ٧/ ١٤٥، ١٤٦ - ١٦٦ ، ١٦٧ .

به، وليكونوا أحسن حالا من اليهود، والنصارى، فلما جاءهم رسول منهم يعرفون نسبه ، وصدقه، وأمانته، كذبوه، ومكروا به، يقول ربنا :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (1).

والتاريخ يتابع مواقف أهل مكة، ويبين لنا كيف استكبروا ، وأبوا الخضوع لله رب العالمين، فهذا هو الوليد بن المغيرة المخزومى يأتى رسول الله ﷺ يعرض عليه أمورًا من أعراض الدنيا ظن أنها تثنى هذا الرسول عن دعوته، فقرأ عليه رسول الله ﷺ آيات من القرآن، فكأن الوليد رقّ لذلك، فلما بلغ أبا جهل هذا أتاه فقال : أى: عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا، قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قِبلَه -أى لما عنده تريد منه الصدقة- قال : قد علمَتْ قريش أنى أكثرها مالا، قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له، قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة، وإنه ليحْطِمُ ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى -أى عليه- قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال : فدعنى أفكر فيه فلما فكَّر قال : إنْ هذا إلا سحر يؤثر إنْ هذا إلا قول البشر، وفى هذا يقول ربنا : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ

(1) سورة فاطر ٣٥ / ٤٢ ، ٤٣.

﴿قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (1).

إنه الإدبار عن الله، والاستكبار على الحق، همـا اللذان دعوا الوليد إلى هذا الموقف، مع أنه يعلم تمام العلـم أن القرآن له حلاوة، وأن علـيه طلاوة، وأنه يعلو ولا يعلى عليه، وأنه ليس بشعر ولا كـهانة، إنما جاء هذا القرآن من فوق، من أعلى، من عند الله الكبـير المتعال، جاء يتحـدى الإنسانية أن تأتى بأقصـر سورة فيه، وفى مـقدمة بنى الإنسـان هؤلاء الفصحـاء البلغاء، ولكن الكبر منع الرجل من الإيمان، والاسـتسلام لله ، ولما جـاء به رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (2).

وهكذا أراد الله أن يخفف عن رسوله وحبيبه ما يجد من حزن وألم لما كـان يجد من إعـراض قومـه وعنادهم وجحـودهم فقـال له : ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ والجحـود هو إنكار الحق بعد العلم به، وهذا شأن الظالمين فـى كل زمان، وهذا ما أخبـرنا به الحق تبارك وتعالى عن فرعون وقـومه حيث قال : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (3).

(1) سورة المدثر ٧٤ / ١١ - ٢٥.
(2) سورة الأنعام ٦ / ٣٣ - ٣٦.
(3) سورة النمل ٢٧ / ١٣ ، ١٤.

ومثل هذا التخفيف ، والتسرية من الرب الرحيم عن رسوله الكريم نجده كثيرًا فى القرآن، فنقرأ من ذلك قول الله - تعالى- : ﴿ طه ۝ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ۝ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ (١) وقوله : ﴿ طسم ۝ تلك آيات الكتاب المبين ۝ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ۝ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ (٢)، وقوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا ﴾ (٣).

وقوله : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ (٤) وغير ذلك فى القرآن كثير.

وقد روى الحاكم - بسنده - عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال: قال أبو جهل للنبى ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله: ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

وفى بيان ذلك وتفصيله يروى محمد بن إسحاق عن الزهرى أنَّ أبا جهل، وأبا سفيان : صخر بن حرب، والأخنس بن شريق، كانوا يذهبون فى جوف الظلام إلى بيت رسول الله ﷺ فيستمعون لقراءته القرآن، ولا يعرف كل منهم مكان الآخر، وذات ليلة استمعوا لقراءة الرسول لكتاب الله إلى الصباح، فلما هجم الصباح تفرقوا فجمعتهم الطرق، فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، لما يخافون من علم شباب قريش بهم لئلا يفتنوا

(١) سورة طه ٢٠ / ١ - ٣.
(٢) سورة الشعراء ٢٦ / ١ -٤.
(٣) سورة الكهف ١٨ / ٦.
(٤) سورة فاطر ٣٥ / ٨.

بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية، جاء كل منهم ظنا أن صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها، ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه فى بيته، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسى رهان -أى: تساوينا فى المكارم والشرف-، قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه ؟؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس وتركه.

وقد استمر هذا العداء، والعناد، والكبر على الله ورسوله إلى آخر لحظات عمر أبى جهل ومن تبعه، إذ يروى ابن جرير بسنده عن السدى أنه لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبنى زهرة : يا بنى زهرة، إن محمدا ابن أختكم فأنتم أحق من رب -أى دافع- عن ابن أخته، فإنه إنْ كان نبيًا لم تقاتلوه اليوم، وان كان كاذبًا كنتم أحق من كف عن ابن أخته، قفوا حتى ألقى أبا الحكم فإن غَلَب محمدًا رجعتم سالمين، وإن غلب محمد، فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئا، فيومئذ سمى الأخنس- وكان اسمه أبى - فالتقى الأخنس بأبى جهل فخلا به

فقال : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد ؟ أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس ههنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا ؟ فقال أبو جهل : ويحك والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾[1].

فانظر كيف حجبهم الكبر عن نور الله، وقادهم إلى هذا الموقف من العداء والحرب للإسلام وأهله ؟ وانظر إلى موازينهم الطائشة، وأفكارهم العاطلة الباطلة وأنت تقرأ في سورة الزخرف قول الله -تعالى- : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)** ﴾ -يقصدون بالقريتين : مكة والطائف- وكأن النبي العظيم، والرسول الكريم ﷺ ليس عظيمًا في نظرهم ، وقد رد الله عليهم ذلك فقال : ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾[2]..

٣- ندامة المستكبرين في الآخرة :

هؤلاء هم المستكبرون، رأينا موقفهم من رسالات الأنبياء، كيف أعماهم الكبر عن طريق الحق حتى قادهم في الدنيا إلى الهلاك، فلنر حالهم في الآخرة من البوار والعذاب المهين :

يقول ربنا في سورة الصافات، وهو يحكي عما آل إليه حال القوم، وما

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) سورة الزخرف ٤٣ / ٥١ - ٥٦ .

هم فيه من الندامة : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [١] الى آخر هذه الآيات البينات.

ويقول في سورة الفرقان : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [٢].

فما طلبوه من رؤية الملائكة عناداً واستكبارا، وتحديا للحق وأصحابه سوف يرونه، ولكن فى حال غير الحال، حال الاحتضار، وحال البعث من القبور يوم القيامة، وفى كلتا الحالتين تقول لهم الملائكة : ﴿ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ وتقول لهم : ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى حرام محرم عليكم الفلاح فى هذا اليوم العصيب، وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب -رضى الله عنه - أن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجى أيتها النفس الطيبة فى الجسد الطيب، كنت تعمرينه، اخرجى إلى روح وريحان، ورب غير غضبان، وتقول للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث، اخرجى إلى سموم وحميم، وظلٍ من يحموم، فتأبى الخروج، وتتفرق فى البدن فيضربونه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [٣].

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا

---

(١) سورة الصافات ٣٧ / ٣٤ - ٣٩.

(٢) سورة الفرقان ٢٥ / ٢١ - ٢٣.

(٣) سورة الأنفال ٨ / ٥٠.

أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١).

أما أهل الإيمان فيقول الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (٢).

وقد سبق حديث عن ذلك ونحن نتحدث عن حال المتقين وما أعد الله لهم من عظيم المنازل والدرجات فى الآخرة (٣).

إن المتكبرين سيندمون لا محالة على ما كان من أمرهم، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤).

وماذا يفيد الندم : إنهم يقولون ما حكى الله عنهم : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ ، ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فتأتيه الإجابة على حسراته وتأوهاته : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ وهذه صورتهم فى اليوم المشهود، صورة الوجوه السود من الحزن والألم : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٥).

(١) سورة الأنعام ٦ / ٩٣.
(٢) سورة فصلت ٤١ / ٣٠ - ٣٢.
(٣) انظر الفصل الأول من الباب الثانى.
(٤) سورة آل عمران ٣ / ١٠٦ ، ١٠٧.
(٥) سورة الزمر ٣٩ / ٥٦ - ٦٠.

وما أعجبه من استفهام فيه من السخرية بالمتكبرين ما فيه : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بلى فيها المقام ، وفيها الخلود، وفيها العذاب المهين لهم ، إنها الخسارة، وأى خسارة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (١).

وإنها لعبارات معبرة، تحمل كثيرا من روائع التعبير القرآنى عن حال الفائزين وحال الخاسرين، وما أدى بهم إلى هذه الخسارة، إلا استكبارهم وإجرامهم، فكان مأواهم النار وما لهم من ناصرين، ولقد ختمت هذه الآيات فى سورة الجاثية بقول الله تعالى : ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو ختام له معناه ومغزاه، إذ لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر.

وقد روى الإمام أحمد عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : التقى عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص -رضى الله عنهما- على المروة فتحدثا، ثم مضى عبد الله بن عمر يبكى، فقال له رجل: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال: هذا - يعنى : عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله لوجهه فى النار».

وفى سورة الأعراف تقرأ حوارا يمثل مشهداً من مشاهد القيامة ، فيه من ندامة المتكبرين ما فيه، ومما جاء فى هذا المشهد قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا

---

(١) سورة الجاثية ٤٥ / ٢٧ - ٣١.

بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقوله : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين ﴿٤٠﴾ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ (١).

ففراشهم جهنم، وغطاؤهم النار، كما قال تعالى : ﴿ سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴾ (٢).

وكما قال سبحانه : ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿٥٤﴾ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ (٣).

وهذا موقف من مواقف الحوار اليائس البائس بين الضعفاء والمتكبرين، يقول الله فيه : ﴿ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ (٤).

ويقول -أيضًا- مظهرا لمذلة الكافرين من الضعفاء والمستكبرين : الضعفاء الذى استجابوا لإغراء وإغواء المستكبرين، والمتكبرين الذين أفسدوهم وأضلوهم، يقول تعالى: ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴿٣١﴾ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴿٣٢﴾ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل

(١) سورة الأعراف ٧/ ٣٦، ٤٠ ، ٤١.

(٢) سورة إبراهيم ١٤ / ٥٠.

(٣) سورة العنكبوت ٢٩ / ٥٤، ٥٥.

(٤) سورة إبراهيم ١٤ / ٢١.

والنَّهارِ إذْ تأْمُرُونَنَا أن نَّكْفُرَ باللَّه ونَجْعَل لَهُ أندادًا وأَسَرُّوا النَّدامَةَ لمَّا رأَوُا الْعَذابَ وجعلْنَا الأَغْلالَ فِي أعْنَاقِ الَّذين كفَرُوا هلْ يُجزوْنَ إلاَّ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [1] ؟؟ إنها اللحظات ، والساعات العصيبة فى مثل هذا الموقف العصيب.

ومثل هذا نجده فى سورة غافر حيث يقول تعالى : ﴿ وإذْ يتحاجُّون في النَّارِ فيَقُولُ الضُّعفاءُ للَّذين استكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لكُمْ تبعًا فهلْ أنتم مُّغْنُون عنَّا نصيبًا مِّن النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ استكْبَرُوا إنَّا كُلٌّ فيهَا إنَّ اللَّه قدْ حكَم بيْن الْعبَاد ﴾ [2] إنه الهوان والذل يحيطان بهؤلاء المستكبرين : ﴿ ويوم يُعْرضُ الَّذين كفرُوا علَى النَّارِ أذْهبْتُمْ طيِّباتكُمْ فِي حياتكُمُ الدُّنْيا واسْتَمْتَعْتُم بهَا فالْيوْمَ تُجْزوْنَ عذَابَ الْهُون بما كُنتُمْ تَسْتكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بغَيْرِ الْحقِّ وبِمَا كُنتُمْ تفْسُقُونَ ﴾ [3].

فنعوذ بالله من الكبر والمتكبرين، ونسأله النجاة من النار.

٤ - الكبر خلق مذموم عند الله ورسوله والمؤمنين :

هناك أدعياء الإيمان، الذين ينتسبون لهذا الدين، ولكن داء الكبر يسرى فى قلوبهم فينظرون إلى الناس نظرة استعلاء، ويخيل إليهم أنهم وحدهم الأذكياء وغيرهم من الناس أغبياء، وأنهم الوجهاء وغيرهم ليس له حظ من هذه الوجاهة، وأنهم أصحاب الفضل ومن عداهم لا فضل له، وأنهم الشرفاء والسادة، وغيرهم الوضعاء، المستعبدون ، الذين يجب عليهم أن يطأطئوا الرأس دائما لسادتهم الشرفاء النبلاء النبهاء، وهذا مرض من الأمراض الخطيرة التى يجب على من أصيب به أن يبحث له عن دواء قبل أن يهلكه هذا الداء.

وإذا كان من أصيب بمرض جسدى، لا يهدأ حتى يعرف العلاج، ويسأل

---

(١) سورة سبأ ٣٤ / ٣١ - ٣٣.

(٢) سورة غافر ٤٠ / ٤٧ ، ٤٨.

(٣) سورة الأحقاف ٤٦ / ٢٠.

الأطباء، ويستريح من دائه، ومرضه، ويتألم كل الألم إن بقى مريضًا لم ينفع فيه دواء، فإن هذا المرض : مرض الكبر، أخطر من ذلك بكثير، لأنه سيؤدى بصاحبه إلى عذاب السعير.

وقد روى الطبرانى عن نصيح العنسى، عن ركب المصرى -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : «طوبى لمن تواضع فى غير منقصة، وذل فى نفسه من غير مسألة، وأنفق مالا جمعه فى غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن طاب كسبه، وصلحت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله».

وروى الإمام مسلم عن عياض بن حماد -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ: إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد».

وفى القرآن : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (1).

وقد جاء فى الحديث الصحيح أنه بينما رجل يمشى فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما إِذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وهذا هو قارون يذكر الله لنا قصته فى كتابه وما كان من أمر كبريائه، وفخره، وزينته التى فتن بها وفتنت من لا علم لهم بالله، ولا إيمان يعصمهم من فتنة الدنيا وزخرفها إلى أن يقول ربنا : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا

(1) سورة الاسراء ١٧ / ٣٧.

مكَانَهُ بالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، وتعقيبا على هذه القصة تأتى العبرة وهذا الدرس : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

ولهذا كان من وصايا لقمان لابنه ما ذكره ربنا فى سورة لقمان : ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (٢) وتصعير الخد للناس معناه : عدم الاكتراث بهم، وعدم الاهتمام بحديثهم، ومعناه: الغطرسة والتعالى والاحتقار لهم، ومثل هذا مما يولد العداوة والبغضاء، ويحمل على الحقد والكراهية، وهى أمور نهى عنها الإسلام أشد النهى، لأنها تفرق الأمة وتمزقها، وتغرس فيها الأشواك، والنزاع والشقاق.

ولذلك روى البخارى، ومسلم عن حارثة بن وهب -رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جَوَّاظ مستكبر».

والعتل: هو الغليظ الجافى، والجواظ : المعجب بنفسه المحقر لغيره، المختال فى مشيته، المنوع لخيره، المحب للدنيا، المتكالب عليها، وقريب من هذا ما رواه أبو داود عن حارثة بن وهب - رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظرى» قال : والجواظ : الغليظ الفظ، والجعظرى : الغليظ المتكبر، ومثل هذا ما رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط بإسناد حسن، والحاكم عن سراقة بن مالك بن جعشم - رضى الله

(١) سورة القصص ٢٨ / ٨١ - ٨٣.

(٢) سورة لقمان ٣١ / ١٨ ، ١٩.

عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «يا سراقه، ألا أخبرك بأهل الجنة وأهل النار؟» قلت : بلى يا رسول الله ؟ قال : «أما أهل النار، فكل جعظرى جواظ مستكبر، وأما أهل الجنة فالضعفاء المغلوبون».

وروى الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «احتجت الجنة والنار، فقالت النار : فىَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة : فِىَّ ضعفاءُ المسلمين ومساكينهم، فقضى الله بينهما : أنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء، وإنك النار، عذابى أعذب بك من أشاء ولِكليكما علَىَّ ملؤها».

فالجبارون، والمتكبرون من أهل النار، والمتواضعون الذين لا يعرفهم الناس من أهل الجنة، ما داموا على الاستقامة، والإيمان الصحيح.

وعن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «إن من أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلىَّ، وأبعدكم منى مجلسًا يوم القيامة : الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون»، قالوا يا رسول الله : قد علمنا الثرثارين والمتشدقين، فما المتفيهقون ؟؟ قال : «المتكبرون». والثرثار هو الكثير الكلام تكلفًا، والمتشدق: هو المتكلم بملء شدقيه تفاصحًا وتعاظمًا، واستعلاء على غيره، وهو معنى المتفيهقين أيضاً.

ولعلك تلقى كثيراً من هؤلاء الذين لا يكفون عن الكلام فى تكلف واضح، يتكلمون بملء أفواههم، يظهرون الفصاحة، والبلاغة، والفهم، وأمثال هؤلاء المتكبرين ممن يبغضهم الله، ويبغضهم رسول الله ﷺ، وهم أبعد الناس منه مجلسًا يوم القيامة.

وروى الطبرانى، والحاكم عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من تعظم فى نفسه، أو اختال فى مشيته لقى الله - تعالى - وهو عليه غضبان» وبئس هذا الإنسان الذى يختال فى مشيته ويتسجلب غضب الله عليه.

وقد روى الترمذى، والطبرانى عن أسماء بنت عميس -رضى الله عنها- قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «بئس العبد» : عبد تخيل واختال، ونسى الكبير المتعال، بئس العبد : عبد تجبر واعتدى، ونسى الجبار الأعلى، بئس العبد : عبد سها ولها ونسى المقابر والبلى [أى: نسى الموت وما فيه من الدفن فى المقابر وتفتت العظام، وهذه النهاية التى تحمل العبر والعظات] بئس العبد : عبد عتا وطغى ، ونسى المبدأ والمنتهى، بئس العبد: عبد رغب يذله» فما أعظم هذا المنهج الواضح الذى حدده مولانا رسول الله ﷺ وهو يذم هذا السلوك لمن تخيل واختال، ونسى الكبير المتعال، ومن تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى، ومن سها ولها ونسى المقابر، والبلى، ولمن عتا وطغى، ونسى المبدأ والمنتهى، ولمن باع دينه بثمن بخس وأذل نفسه تحت وطأة رغبة عارضة سرعان ما تزول، إلى غير ذلك مما أوضحه لنا هذا الرسول العظيم -صلوات الله وسلامه عليه-.

ولو نظر المتكبر فى نفسه ، وما هو عليه من ضعف وضعة لولا أن الله أكرمه بالعقل والدين والنبوة - لطأطأ الرأس تواضعًا لله رب العالمين، ولذلك قال الأحنف بن قيس : «عجب لمن جرى فى مجرى البول مرتين، كيف يتكبر» ؟؟

وقد وصف بعض الشعراء الإنسان المتكبر فقال :

يا مظهر الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريب

لو فكر الناس فيما فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

هل فى ابن آدم مثل الرأس مكرمة   وهو بخمس من الاقذار مضروب
أنف يسيل ، وأذن ريحها سهك   والعين مرفضة، والثغر ملعوب
يا ابن التراب ، ومأكول التراب غدا   أقصر، فإنك مأكول ومشروب

وقريب من قول الأحنف ما حكى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر إلى المهلب بن أبى صفرة، وعليه حلة يسحبها، ويمشى الخيلاء ، فقال : يا أبا عبد الله، ما هذه المشية التى يبغضها الله ورسوله ؟ فقال المهلب : أما تعرفنى؟ فقال : بل أعرفك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذره.

وقد أخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال :

عجبت من معجَبٍ بصورته   وكان بالأمس نطفة مذرة
وفى غد بعد حسن صورته   يصير فى اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته   ما بين ثوبيه يحمل العذرة

والعذرة : هى الغائط الذى يخرجه الإنسان بعد هضمه للطعام من الدبر . .

إنه النقص الذى يحاول المتكبرون بكبرهم أن يجبروه . . وهيهات، ورحم الله ابن المعتز حيث قال : لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوى الكمال، استعانوا بالكبر ليعظِم صغيرًا، ويرفع حقيرًا، وليس بفاعل.

إن التكبر على الله جهل، وطغيان : قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (١).

(١) سورة غافر ٤٠ / ٦٠.

وقال : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴿١٧٢﴾ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ (١).

كما أن التكبر على الرسل ودعوتهم حماقة وأى حماقة، والذى أدى إلى ذلك هو ترفع القوم عن الانقياد لبشر، كما قال تعالى : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ (٢). وكما قال : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ (٣).

وقد يدفع الكبر أصحابه إلى عدم الإيمان إذا ما رأى أصحاب الجاه والسلطان أن أتباع الأنبياء من الضعفاء، فتأنف نفوسهم المريضة أن يجلسوا مع هؤلاء الضعفاء.

ولذلك روى الإمام مسلم أن قريشًا قالت لرسول الله ﷺ : كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ؟؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين، فازدروهم وتكبروا عن مجالستهم فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴿٥٢﴾ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ (٤).

وقال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ (٥).

---

(١) سورة النساء ٤ / ١٧٢ ، ١٧٣.
(٢) سورة إبراهيم ١٤ / ١٠.
(٣) سورة المؤمنون ٢٣ / ٤٧.
(٤) سورة الأنعام ٦ / ٥٢ ، ٥٣.
(٥) سورة الكهف ١٨/ ٢٨.

أما التكبر على العباد - والذى سقنا طرفا من الآيات والأحاديث فيه - فإنه شعور النفس بالعظمة مع احتقار الآخرين وازدرائهم، واستصغارهم، وصاحب هذا الحال يأبى أن يتساوى بغيره فى حق أو واجب، فهو - لذلك - ظلوم، جهول ، غشوم، متعال، متغطرس، مثل هذا اللون من الكبر مشاقة لله العلى الكبير، ومنازعة للرب المتعال فى صفة من صفاته، وهذا - كما ذكرنا - يقود إلى عدم الإيمان ، كما كان من أمر الجاحدين لنبوة الأنبياء، لا لشئ سوى التكبر على الإيمان بما جاءوا به، مع اقتناعهم أن هؤلاء الأنبياء على حق، وأن ما عندهم هو الخير كل الخير.

وقد قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (1).

وروى مسلم عن سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال لرجل كان يأكل بشماله : «كل بيمينك»، قال : لا أستطيع ، فقال النبى ﷺ : «لا استطعت» ، فما منعه إلا كبره، قال : فما رفعها بعد ذلك. أى: اختلت يده وأصابها الشلل !!

وقد جاءت الأحاديث والتوجيهات النبوية تنهى عن الكبر، وتبين خطره وضرره، يروى أبو داود والترمذى واللفظ له - عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال : لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله - عز وجل - من الجعل الذى يدهده

(1) سورة البقرة ٢ / ٢٠٤ - ٢٠٦.

الخرء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية [أي: كبرها] وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقى، وفاجر شقى، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب» وصدق الله إذ قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (1).

وقد قال الشاعر :

الناس من جهة التمثال أكفاء	أبوهمُ آدم، والأم حواء
فإن يكن لهم في أصلهم شرف	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدْرُ كل امرئ ما كان يحسنه	والجاهلون لأهل العلم أعداء
وإن أتيت بجود في ذوى نسب	فإن نسبتنا جود وعلياء
ففز بعلم تعش حيًّا به أبدا	الناس موتى، وأهل العلم أحياء

وإذا فهم الإنسان هذه الحقيقة، وهو أنه لا يزيد على الآخرين فى أصل الخلقة، فأبو الجميع آدم، والأم حواء ، تواضع لهم، ولان جانبه، وحظى حينذاك بالسعادة والمحبة فى الدنيا والآخرة.

روى الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : «من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله».

ومثل هذا ما رواه الإمام أحمد، والبزار عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- أنه قال على المنبر: أيها الناس تواضعوا، فإنى سمعت رسول الله ﷺ

(1) سورة الحجرات ٤٩ / ١٣.

يقول : «من تواضع لله رفعه الله»، وقال : انتعش نعشك الله [أى: قم من عثرتك، وارتفع فلن يخيبك الله أبداً] فهو فى أعين الناس عظيم، وفى نفسه صغير، ومن تكبر قصمه الله [أى: أهانه وأذله] وقال : اخسأ [أى: ابتعد عن رحمتى وعظيم جودى] فهو فى أعين الناس صغير وفى نفسه كبير.

ولهذا كان عمر - رضى الله عنه - يضرب المثل من نفسه فى التواضع، فقد روى الحاكم عن طارق قال : خرج عمر -رضى الله عنه- إلى الشام، ومعنا أبو عبيدة، فأتوا على مخاضة [أى: مكان فيه ماء كثير يخوضه الناس] وعمر على ناقة له : فنزل وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض، فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين، أنت تفعل هذا، ما يسرنى أن أهل البلد استشرفوك [أى: اطلعوا عليك ورأوك على هذا الحال] فقال -رضى الله عنه- : أوه، ولو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به، أذلنا الله.

وصدق -والله - عمر، إذ لا عزة لهذه الأمة إلا بالإسلام فإن طلبت العز بغير ذلك أذلها الله.

ومثل هذا الذى كان من عمر نجده فى سلوك أصحاب رسول الله أجمعين، فإنهم تربوا فى أحضان النبوة، -فرضى الله عنهم جميعاً-، ومن ذلك ما رواه الطبرانى عن عبد الله بن سلام -رضى الله عنه- أنه مر فى السوق وعليه حزمة من حطب فقيل له : ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا ؟ قال : أردت أن أدفع الكبر، سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يدخل الجنة من فى قلبه خردلة من كبر».

ولا عجب، فإن رسول الله ﷺ كان المثل الأعلى فى ذلك، فقد روى

أن رجلا أتى به للنبى ﷺ فأصابته رعدة، فقال له ﷺ : «هوِّنْ عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد». .

وأخلاقه العظيمة - صلوات الله وسلامه عليه - يطول فيها الحديث ويحلو، وحسبه أن مدحه ربه بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

فاللهم حَسِّن أخلاقنا، وتقبل منا صالح الأعمال.

« وبعد »

فهؤلاء هم الكافرون، والظالمون، والمعتدون، والمسرفون، والمتكبرون. خمسة نماذج لأصناف من البشر لا يحبهم الله، والمؤمن الحق لا يحبهم كذلك، لأنهم - وبخاصة - الكفرة ، الظالمون، المعتدون ، المسرفون فى كفرهم، المستكبرون على الإيمان بخالقهم، هؤلاء أعداء الله ، وأعداء رسوله، والمؤمنين، والمسلم اليوم - أشد ما يكون حاجة إلى معرفة هؤلاء الأعداء، فإنهم يمكرون بأهل الاسلام ، يريدون أن يطفئوا نور الله، وأن يزيلوا أمة الإسلام، وقد أعلنوها حربًا لا هوادة فيها على كل ما له صلة بهذا الدين العظيم، ولن يستقيم لأهل الإسلام طريق، ولن يحققوا غاية إلا إذا أدركوا من هو العدو، ومن هو الصديق ، فرتبوا أمورهم ، وأقاموا علاقاتهم على هذا الأساس المتين ، وهذه هى الموالاة، والتى يجب أن تكون لمن يحبهم الله، وأن يحرم منها من يبغضهم ربنا، ولا يحبهم رسولنا -صلوات الله وسلامه عليه-. فإن هذا هو عنوان الإيمان الصادق قال تعالى : ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١).

(١) سورة آل عمران ٣ / ٢٨.

إلى آخر الآيات التى ذكرناها من قبل ونحن نتحدث عن هذه القضية الخطيرة، ومكانتها فى دين الاسلام.

والآن ننتقل - بإذن الله وعونه وتوفيقه - إلى الباب الرابع : ركائز فى حياة أهل الاسلام، لنتناول فى فصول أربعة : الإخلاص ، والصدق، والوفاء، والأمانة لتكون الأسس التى يشاد عليها البناء ، والمنطلق الذى ينطلق منه أبناء الإسلام إلى العزة، والسيادة، والريادة ، والقوة فى عالم اليوم، كما فعل آباؤهم من قبل، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الباب الرابع

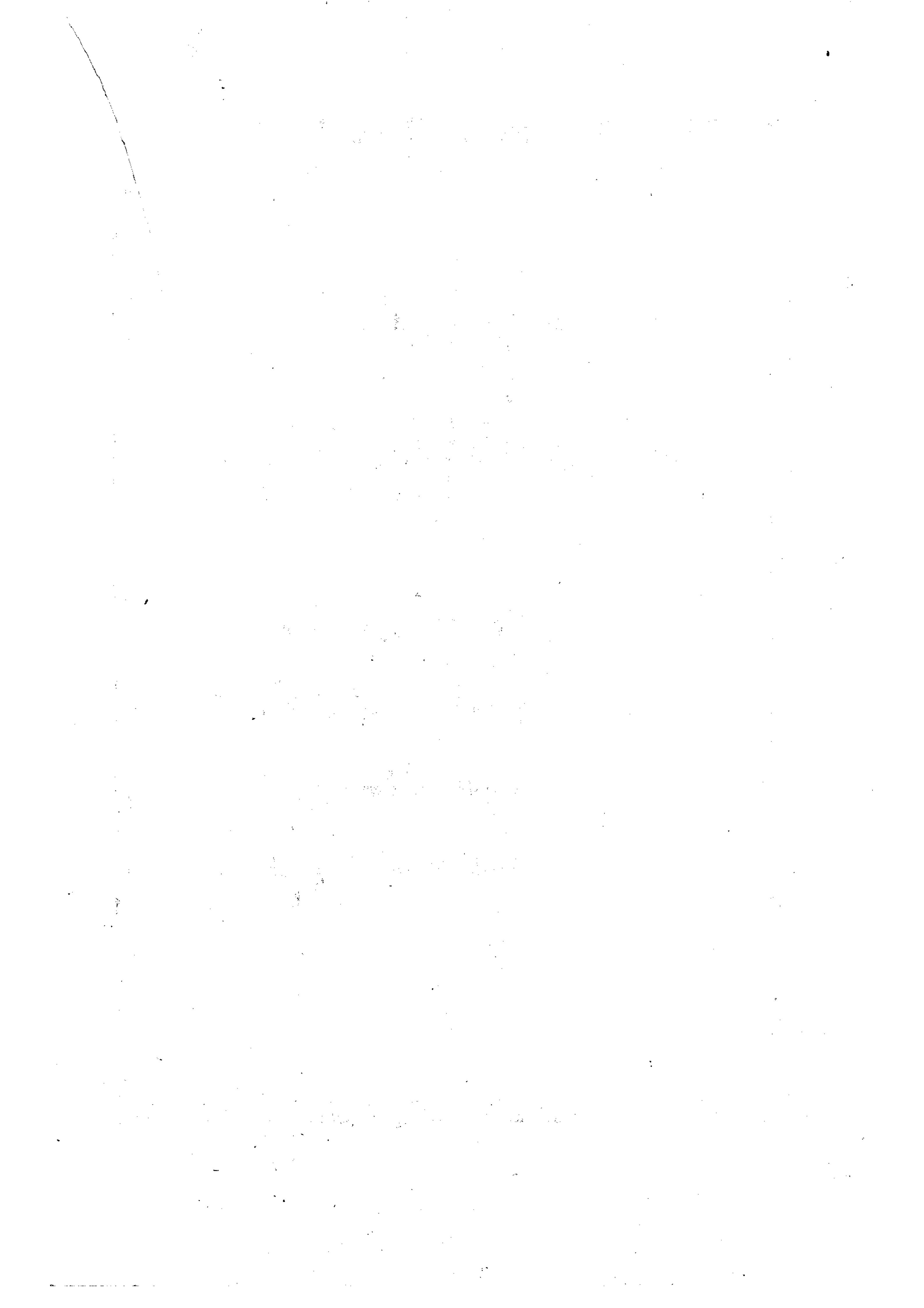
ركائز فى حياة أهل الإسلام

١- الفصل الأول : الإخلاص

٢- الفصل الثانى : الصدق

٣- الفصل الثالث : الوفاء

٤- الفصل الرابع : الأمانة



الفصل الأول

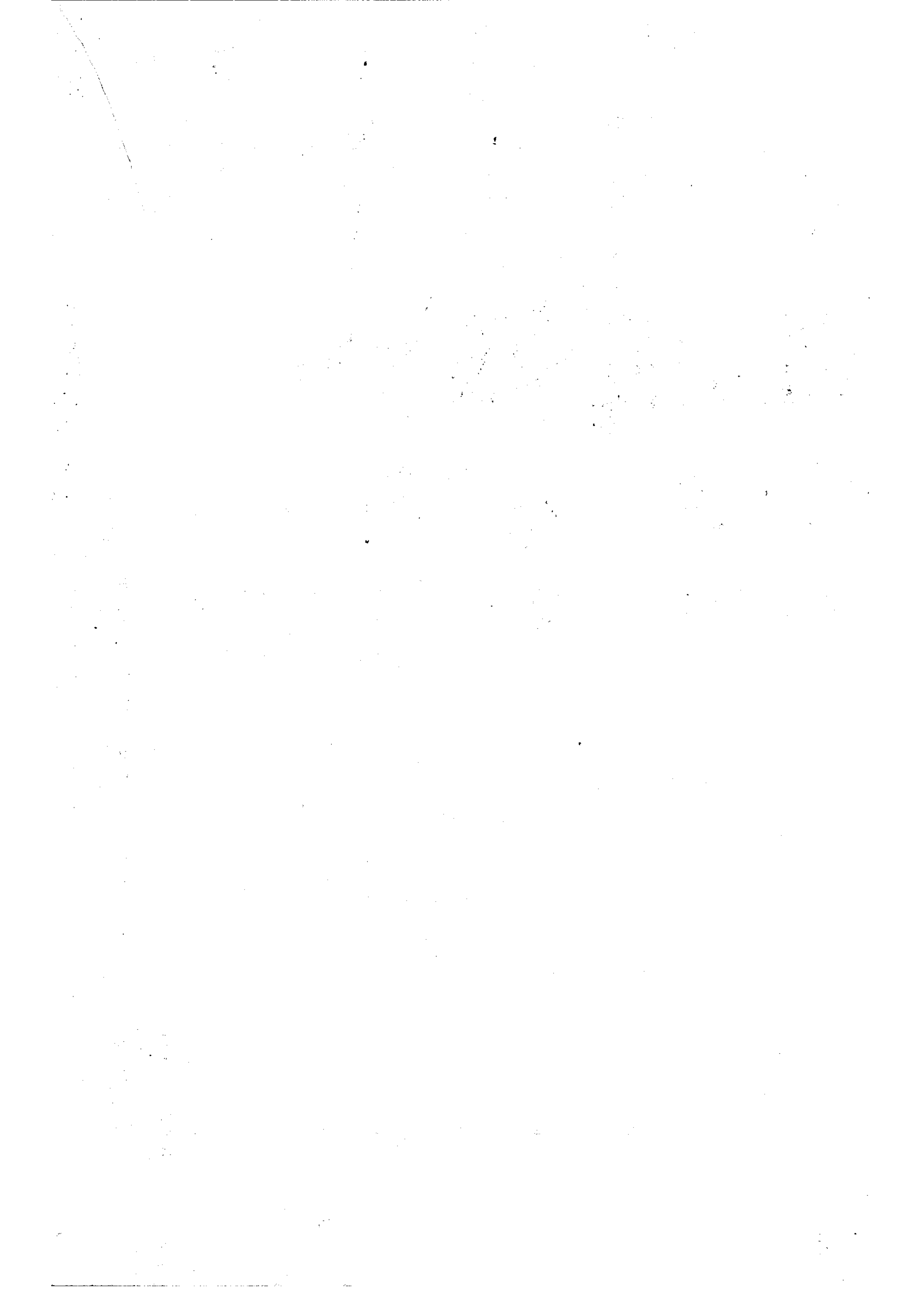
الإخلاص

١- ما هو الإخلاص.

٢- الإخلاص قسمان :

١- إخلاص العبودية لله.

٢- إخلاص العمل لله.



الفصل الأول

«الإخلاص»

١- ماهو الإخلاص ؟؟

الإخلاص أساس البناء، وروح الحيـاة، ونور الطريق، وضياء كل عمل، وبدونه لا يرفع بناء، ولاتكون حيلة، ولا يُرَى طريق، ولا يصل لغايته عمل، إنه الركن الركين فى دين الإسلام، والأساس المتين فى كل رسـالات السماء، فلنتجـول فى رياض القرآن الكريم. والسنة النبوية الشريفة لنعرف صـدق ما قلناه، ولنرى كم يحتل هذا الجانب العظيم من دين الإسلام.

إن الإخـلاص يعنى التصـفيـة والتنقـية : تصـفيـة القلب، والمشاعـر، والأحاسيس، وتنقيتها من كل ما سوى الله.

يقول ابن فارس – فى معجم مقاييس اللغة – : «خلص : الخاء واللام والصاد، أصل واحد مطرد، وهو: تنقية الشئ وتهـذيبه، يقولون : خلصته من كذا، وخلص هو، وخـلاصة السمـن : ما ألقى فيـه من تمر أو سويق ليخلص به» (١).

ويقول الزبـيدى فى تاج العروس : «التـخليص : التصـفـيـة ، وياقوت مخلص : أي: منقى، وقيل لسورة «قل هو الله أحد» سورة الإخلاص، قال ابن الأثير لأنها خالصة فى صفة الله -تعالي-، أو لأن اللافظ بها قد أخلص التوحيد لله -عز وجل-، وكلمة الإخلاص : كلمة التوحيد» (٢).

وفى المعجم الوسيط : خلص خلوصًا وخلاصًا : صفا وزال عنه شوبه،

---

(١) معجم مقاييس اللغة : لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا / تحقيق وضبط عبد السلام هارون، ط الثانية ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر – جـ ٢ ص ٢٠٨.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس : للإمام اللغوى محب الدين أبى الفيض السيد محمد مرتضى الحسينى الواسطى الزبيدى – المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ المجلد الرابع ص ٣٩٠.

وأخلص الشئ : أصفاه ونقاه من شوبه، ويقال : أخلصه النصيحة والحب وأخلصهما له، والإخلاص : كلمة الإخلاص، كلمة التوحيد، وسورة الإخلاص : سورة التوحيد» [1].

وفى مختار الصحاح : «خالصه فى العشرة : صافاه، وهذا الشئ خالصة لك : أى: خاصة ، واستخلصه لنفسه : استخصه. .» [2].

وإذا كان الإخلاص - كما ذكرت معاجم اللغة - يعنى التنقية والتصفية من كل الشوائب، والأكدار فإن الآيات القرآنية وقد نزلت بلسان عربى مبين - والأحاديث النبوية - والناطق بها النبى العربى الأمين، جاءت موضحة لهذه الحقيقة، مبينة لأبعاد هذه التنقية وتلك التصفية.

٢- الإخلاص قسمان :

وبنظرة متأنية يمكن لنا أن نقسم الإخلاص إلى قسمين رئيسين، ينبنى أحدهما على الآخر، أما **الأول** فهو اعتقادى وهو: تنقية القلب مما سوى الله، فلا يتأله العبد لغير الإله الحق، ولا يعبد إلا هو ، ولا يدين بالطاعة والولاء والحب إلا لخالق السموات، والأرض، وكل طاعة أو ولاء أو حب لأحد فى هذا الوجود مصدره الطاعة والولاء والحب لله.

والقسم الثانى من الإخلاص : هو الإخلاص العملى، وهو: ألا يقصد العبد بعمله وقوله وفعله سوى رب العالمين، ويقابل الأول : الشرك، والكفر، والإلحاد ونفاق الإعتقاد، ويقابل الثانى : الرياء، ونفاق العمل. والآيات، والأحاديث، والآثار فى هذا وذاك أكثر من أن تحصى، فلنتخير منها ما يوضح المراد :

---

(١) المعجم الوسيط لمجموعة من المؤلفين / مجمع اللغة العربية بمصر / مطبعة مصر ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ جـ ١ ص ٢٤٩.

(٢) مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى - رحمه الله تعالى - / عنى بترتيبه محمود خاطر بك ط دار الفكر ١٣٩٢ هـ ١٩٧٣ م ص ٨٤.

١- إخلاص العبودية لله :-

ولنبدأ بالأول : وهو إخلاص العبودية لله، لأن الثانى مترتب عليه. بل إن كل ما للعبد من قول أو عمل أو حركة أو سكون مبنى على هذا الإخلاص، وإلا فكل ما قدم الإنسان لا فائدة له كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ (١).

وجماع ما جاء فى إخلاص التوحيد : سورة التوحيد، أو سورة الإخلاص ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٢).

إنها أربع آيات، ولكنها تعدل ثلث القرآن، والأحاديث فى هذا كثيرة : منها ما رواه البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه- أن رجلا سمع رجلا يقرأ : «قل هو الله أحد» يرددها، فلما أصبح جاء الى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له - وكأن الرجل يتقالها - [أى: يرى أنها قليلة وأن على القارئ أن يزيد عليها فيقرأ الكثير] فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» (٣).

ومنها ما رواه البخارى أيضاً بسنده عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال النبى ﷺ لأصحابه : «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟» فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله فقال : «الله الواحد الصمد ثلث القرآن. . .» (٤).

فلماذا عدلت سورة الإخلاص ثلث القرآن ؟.

---

(١) سورة الفرقان ٢٥ / ٢٣.

(٢) سورة الإخلاص ١١٢.

(٣ ، ٤) صحيح البخارى ومعه فتح البارى جـ ٩ ص ٥٩ - باب فضل قل هو الله أحد.

هيا لنعرف بعض ما فيها من أسرار، وأنوار، ولعل ذلك يوضح لنا لماذا عدلت ثلث القرآن فأولها ﴿قُلْ﴾ وذلك أمر لرسول الله ﷺ يثبت أنه عبد مأمور من قبل سيد آمر، وفى ذلك دليل على عبوديته - صلوات الله وسلامه عليه - لربه، وطاعته لمولاه، إذ يؤمر فيلبى ويجيب، وينفذ، ويبلغ، وقد خاب من ادعى أن كلمة ﴿قُلْ﴾ فى القرآن لا داعى لها وأن الأَوْلَى حذفها لأنها أمر لرسول الله ﷺ وليست أمرًا لنا، فنحن نقول : هو الله أحد، دون أن نبدأ «بقل» وهو فهم خاطئ يدل على جهل بكتاب الله، فكلمة ﴿قُلْ﴾ مع ما فيها من إثبات العبودية للمأمور بها هى دليل على دقته فى التبليغ، وأن كل أمر إليه أو نهى بلَّغَه لأمته دون أن ينقص منه حرفًا أو يزيد عليه حرفًا قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (١).

وقال عز من قائل : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢).

فبماذا أمر ﷺ ؟ أمر أن يقول : هو الله أحد، وكلمة ﴿هُوَ﴾ تشعر بأن سائلا سأل عن الله -سبحانه- فجاءت السورة إجابة عن سؤاله، وبهذا وردت السنة المشرفة: أخرج أحمد، والبخارى، والترمذى وابن جرير، وابن خزيمة، والبيهقى فى الأسماء، والصفات عن أُبَىٍّ بن كعب : أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : يا محمد انسُب لنا ربك، فأنزل الله : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ - إلخ ليس شئ يولد إلا سيموت، وليس شئ يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا

(١) سورة الحاقة ٦٩ / ٤٤ - ٤٧.

(٢) سورة يونس ١٠ / ١٥.

يورث، ولم يكن له كفوًا أحد، قال : لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شئ.

وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، والطبرانى فى الأوسط، وأبو نعيم فى الحلية، والبيهقى عن جابر قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : «أنسب لنا ربك فأنزل الله : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١).

فكأنه قال : الربّ الذى سألتمونى عنه وتريدون معرفته هو الله المعبود بحق، المقصود فى كل أمر، المتعالى بذاته وصفاته، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

فما معنى ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهل هناك فرق بين : أحد، وواحد ؟

أما معنى ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإن كل كلمة من الكلمتين تثبت انفراده، واختصاصه -سبحانه- بالألوهية وأنه لا إله غيره : فالله : علم على الذات العلية لا يسمى به غيره بخلاف كلمة «إله» فهى تطلق على المعبود بحق، والمعبود بباطل لكن إذا قيل : «الله» فهذا يعنى: أنه الإله المعبود بحق، المتصف بصفات الجلال والكمال. و ﴿أَحَدٌ﴾ إثبات لوحدانيته، ونفى لكل شركة فيها. . ولذلك لا يوصف بالأحدية غير الله -تعالى- كما قال الأزهرى: فلا يقال رجل أحد ولا درهم أحد إنما يقال: رجل واحد ودرهم واحد، يقول ابن حجر فى فتح البارى نقلا عن القرطبى : اشتملت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ على اسمين يتضمنان جميع أوصاف الكمال وهما الأحد، والصمد فإنهما يدلان على أحدية الذات المقدسة الموصوفة بجميع أوصاف الكمال، فإن الواحد، والأحد وإن رجعا إلى أصل واحد فقد افترقا استعمالا وعرفًا، فالوحدة راجعة إلى: نفى التعدد، والكثرة، والواحد: أصل العدد من غير تعرض لنفى ما عداه، والأحد: يثبت مدلوله

(١) انظر / فتح القدير الشوكانى جـ ٥ ص ٥١٥، ٥١٦ ، وجامع البيان للطبرى جـ ٢ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣.

ويتعرض لنفى ما سواه ولهذا يستعملونه فى النفى ويستعملون الواحد فى الإثبات، يقال: ما رأيت أحدًا، ورأيت واحدًا، فالأحد فى أسماء الله - تعالى- مشعر بوجوده الخاص به الذى لا يشاركه فيه غيره . . [1].

وبهذا يتضح لنا الفرق بين الواحد، والأحد، ويتبين لنا أن كل كلمة فى قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تفيد اختصاصه سبحانه بالوحدانية، فسبحانه من إله واحد أحد.

وبعد قوله : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يأتى قوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فما معنى الصمد ؟؟ إنها كلمة فريدة فى كتاب الله لم تذكر فى القرآن كله إلا هنا، كما أن كلمة ﴿أَحَدٌ﴾ لم تأت وصفًا لله إلا هنا أيضاً وما ذلك إلا لأن السورة فريدة فى بابها.

يقول قتادة : هذه سورة خالصة «أى: فى إثبات وحدانية الله» ليس فيها ذكر شئ من أمر الدنيا والآخرة. [2].

إن كلمة ﴿الصَّمَدُ﴾ تجمع كل أوصاف الكمال التى تليق بالله -عز وجل-.

ومن هنا جاءت أقوال السلف، وأئمة اللغة فى معنى الصمد :

فالإمام البخارى فى صحيحه يبوب فى كتاب التفسير بابًا فى قوله : ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، ويقول : والعرب تسمى أشرافها الصمد، قال أبو وائل : هو السيد الذى انتهى سؤدده [3] أى: وصل الى أعلى درجاته.

وهذا ما رآه حبر الأمة ابن عباس - رضى الله عنهما- فقد روى عنه

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٥٧ / كتاب التوحيد/ باب ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله - تعالى -.

(٢) جامع البيان للطبرى ١٢ / ٣٤٧.

(٣) صحيح البخارى ومعه فتح البارى ١٣ / ٧٣٩.

عكرمة قوله : الصمد : الذى يصمد إليه الخلائق فى حوائجهم، ومسائلهم، وروى عنه على بن أبى طلحة قوله : الصمد هو: السيد الذى قد كمل فى سؤدده، والشريف الذى قد كمل فى شرفه، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته والحليم الذى قد كمل فى حلمه، والعليم الذى قد كمل فى علمه، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته، وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله - سبحانه - هذه صفته لاتنبغى إلا له، ليس له كفء وليس كمثله شئ، سبحان الله الواحد القهار.

وقال الحسن: وقتادة : هو الباقى بعد خلقه، وقال الحسن أيضاً : الصمد الحى القيوم الذى لا زوال له، وقال عكرمة : الصمد الذى لم يخرج منه شئ ولا يطعم، وقال الربيع بن أنس : هو الذى لم يلد ولم يولد، كأنه جعل ما بعده تفسيرا له وهو قوله : لم يلد ولم يولد، وقال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله بن بريدة، وعكرمة أيضاً، وسعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح، وعطية العوفى، والضحاك، والسدى. الصمد : الذى لا جوف له، وقال الشعبى : هو الذى لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، وقال عبد الله بن بريدة أيضاً الصمد : نور يتلألأ، قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى كتاب السنة له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال فى تفسير الصمد: وكل هذه صحيحة وهى صفات ربنا -عز وجل-، هو الذى يصمد إليه فى الحوائج وهو الذى قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذى لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب وهو الباقى بعد خلقه [1].

ولننظر فى إعادة لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ فى هذه الآية : الله الصمد، بعد أن ذكر هذا فى قوله : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ : إن ذلك يعنى أن المتصف بالصمدية

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ٥٧٠.

هو الجدير بأن يكون إلهًا، وأن من خلا عن ذلك بعيد عن استحقاق هذه المرتبة .. وهل يمتلك أحد - سوى الله الأحد فى هذا الموجود نفعًا أو ضرًا أو موتًا أو حياة أو نشورًا ؟ بل هل يستطيع أحد من الخلق أن يدفع عن نفسه ضرًا أو موتًا أو تعاسة أو شقاء أو يجلب لنفسه نفعًا أو حياة أو سعادة ؟؟

إن الرسول العظيم -صلوات الله وسلامه عليه- مع ما أوتى من فضل وشرف ومنزلة عند الله والناس يقول الله له : ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

وهؤلاء هم المتجبرون، والمتكبرون ومن خيل اليهم أنهم امتلكوا رقاب الناس وأن بيدهم شيئًا من تصريف هذا الملك الواسع .. أين هم؟ وماذا فعل الله بهم ؟ وكيف بادوا وبادْ سلطانهم ؟؟ فكيف يستحق مخلوق فى الأرض أو فى السماء أن يكون إلها ؟ إن الإله الحق هو الذى انتهى إليه أمر الخلائق فبيده الملك كله، وبيده الخير كله، ومنه يطلب الخير كله، ويدفع به الشر كله، وخسر من رجا من مخلوق مثله أن يجلب له النفع أو يدفع عنه الضر، إنها بعض أنوار قوله : ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ وما فيها من ذكر لفظ الجلالة مرة أخرى بعد أن ذكر فى الآية السابقة ، هو الذى قادنا لهذا الحديث الحبيب.

وما زالت الآيات تترى تثبت لله صفات الكمال، وتنفى عنه كل صفة ذميمة، وصفه بها المبطلون فتقول : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فليس له سبحانه ولد ولا والد.

وقال قتادة : إن مشركى العرب قالوا : الملائكة بنات الله وقالت اليهود:

---

(١) سورة الأعراف ٧ / ١٨٨.

عزيز ابن الله وقالت النصارى : المسيح ابن الله، فأكذبهم الله فقال : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (١).

والقرآن شاهد على ذلك قال تعالى : ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢).

ولم يقل أحد من المشركين : بأن لله والدا، إنما قالوا بأن لله ولدا، ولذلك بدأ بنفى هذا عنه فقال :﴿لَمْ يَلِدْ﴾ وذكر ما بعده فقال : ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فكان هذا من باب الاستدلال على نفى الولد كأنه قال : الدليل على امتناع الولد عن الله - سبحانه - اتفاقنا على أنه ما كان ولدا لغيره.

وبنظرة متأنية يتبين لنا أن الآية تنفى عن الله الفناء، وتثبت له البقاء، وتنفى عنه الحدوث، وتثبت له القدم، لأنه حين قال: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فمعناه: أنه ليس بفانٍ، لأنه كما يقول ابن جرير الطبرى : لا شئ يلد إلا وهو فان بائد، وحين قال : ولم يولد فمعناه : أنه ليس بمحدث، لأن كل مولود فإنما وجد بعد أن لم يكن وحدث بعد أن كان غير موجود ولكنه تعالى ذكره «قديم لم يزل ودائم لم يبد» (٣).

والقرآن يستدل على نفى الولد عن الله - سبحانه - فيقول : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٤).

ويقول : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (٥).

(١) فتح القدير : للشوكانى ٥ / ٥١٦.
(٢) سورة الصافات ٣٧/ ١٥١ ، ١٥٢.
(٣) جامع البيان : لابن جريرالطبرى ١٢ / ٣٤٧.
(٤) سورة الأنعام ٦ / ١٠١.   (٥) سورة البقرة ٢ / ١١٦.

ويقول : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (١).

ويقول : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

والسنة تذكر هذا فقد روى البخارى فى صحيحه : «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم» (٣).

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : قال الله -عز وجل- : «كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد» (٤).

أما الآية الأخيرة فى السورة فتأتى مؤكدة لهذه الصفات فتقول: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أى :لا يماثله ولا يشبهه أحد من خلقه، وكيف يماثله أو يشبهه أحد من خلقه وهو الذى خلق الخلق قال تعالى : ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٥).

(١) سورة مريم ١٩/ ٨٨ - ٩٥.
(٢) سورة الأنبياء ٢١ / ٢٦ ، ٢٧.
(٣) فتح البارى ١٣ / ٣٦٠ كتاب التوحيد / باب قول الله - تعالى- ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.
(٤) فتح البارى ٨ / ٧٣٩ كتاب التفسير/ سورة قل هو الله أحد.
(٥) سورة الشورى ٤٢ / ١١.

هذه هى سورة الإخلاص التى جمعت التوحيد كله وأوضحت كلمة الإخلاص : لا إله إلا الله، بأوضح عبارة وأظهر دليل ، وحملت لقارئها بشريات الخير عند الله.

روى البخارى بسنده عن عائشة -رضى الله عنها- أن النبى ﷺ بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : «سلوه لأى شئ يصنع ذلك» فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبى ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه . . » [(١)].

وروى البخارى فى كتاب الصلاة بسنده عن أنس -رضى الله عنه- قال : كان رجل من الأنصار يؤمهم فى مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد، حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك فى كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال : ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبى ﷺ أخبروه الخبر، فقال «يا فلان ، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة» ؟ قال : إنى أحبها، قال : «حبك إياها أدخلك الجنة».

وروى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر -رضى الله عنه- قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت يا رسول الله، بم

(١) فتح البارى ٣ / ٣٤٧ ، ٣٤٨ كتاب التوحيد/ باب ماجاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله - تبارك وتعالى-.

نجاة المؤمن : قال : يا عقبة : «أخرس لسانك ، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك» ، قال : ثم لقينى رسول الله ﷺ فابتدأنى فأخذ بيدى فقال : «يا عقبة بن عامر، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت فى التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن العظيم قال : قلت : بلى جعلنى الله فداك قال : فاقرأنى : قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس، ثم قال : «يا عقبة لا تنسهن، ولا تبت ليلة حتى تقرأهن»، قال: فما نسيتهن منذ قال لا تنسهن، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن، قال عقبة : ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت يا رسول الله، أخبرنى بفواضل الأعمال فقال : «يا عقبة : صل من قطعك، وأعط من حرمك وأعرض عمن ظلمك». . وقد روى هذا الحديث أيضاً الإمام الترمذى وقال : هذا حديث حسن.

ولهذا لا عجب أن رأينا رسول الله ﷺ يستشفى بهن، ويتعوذ بهن - روى البخارى بسنده عن عروة عن عائشة أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما «قل هو الله أحد» «وقل أعوذ برب الفلق» و«قل أعوذ برب الناس»، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، وقد عرفنا - من قبل - بعض ما جاء فى السنة المطهرة ومن ذلك -أيضاً- ما رواه مسلم، والترمذى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «احشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبى الله ﷺ فقرأ :

«قل هو الله أحد» ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله ﷺ: فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، إنى لأرى هذا خبراً جاء من السماء،

ثم خرج النبى ﷺ فقال : إنى قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن»[1].

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو أن أبا أيوب الأنصارى كان فى مجلس وهو يقول : ألا يستطيع أحدكم أن يقوم بثلث القرآن كل ليلة؟ فقالوا : وهل يستطيع ذلك أحد ؟ قال : فإن «قل هو الله أحد» ثلث القرآن، قال : فجاء النبى ﷺ وهو يسمع أبا أيوب، فقال: «صدق أبو أيوب..»[2].

وإنما عدلَتْ سورة الإخلاص ثلث القرآن لأنها كما قال بعض العلماء: ثلث باعتبار معانى القرآن، لأنه أحكام، وأخبار، وتوحيد، وقد اشتملت هى على القسم الثالث؛ فكانت ثلثًا بهذا الاعتبار، ويستأنس لهذا بما أخرجه أبو عبيدة من حديث أبى الدرداء قال : جزّأ النبى ﷺ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءًا من أجزاء القرآن، وفى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال : «إن الله جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءًا من أجزاء القرآن» قال النووى -رحمه الله-: قال القاضى قال المازرى : «قيل معناه إن القرآن على ثلاثة أنحاء : قصص، وأحكام، وصفات الله تعالى، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ متمحضة للصفات فهى ثلث وجزء من ثلاثة أجزاء» وقريب من ذلك ما قاله بعضهم : من أن هذه السورة تضمنت توجيه الاعتقاد وصدق المعرفة، وما يجب إثباته لله من الأحدية المنافية لمطلق الشركة، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذى لا يلحقه نقص، ونفى الولد والوالد المقرر لكمال المعنى، ونفى الكفء المتضمن لنفى الشبيه والنظير، وهذه مجامع

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ٩٥ / باب فضل قراءة قل هو الله أحد، وسنن الترمذى ٤ / ٢٤٢ حديث رقم ٣٠٦٣.

(٢) مسند الإمام أحمد.

التوحيد الاعتقادى ، ولذلك عادلت ثلث القرآن، لأن القرآن خبر وإنشاء، والإنشاء أمر ونهى وإباحة، والخبر خبر عن الخالق وخبر عن خلقه فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عن الله وخلصت قارئها من الشرك الاعتقادى.

ومنهم من حَمَل المثلية على تحصيل الثواب فقال : معنى كونها ثلث القرآن أن ثواب قراءتها يحصل للقارئ مثل ثواب من قرأ ثلث القرآن.

وقيل : المراد من عمل بما تضمنته من الإخلاص والتوحيد كان كمن قرأ ثلث القرآن [١].

وعلى أية حال فهى سورة عظيمة تحمل لتاليها الخير العظيم، وفيها وفى الأحاديث التى وردت فى بيان فضلها ومنزلتها كثير من الدروس : فمن ذلك فضل هذه السورة لما اشتملت عليه من المعانى العالية، ومن ذلك : أن الله هو المعبود بحق، وأنه هو المتصف بصفات الجلال والكمال وأنه ملجأ الخلق وملاذهم لا ملجأ لهم سواه، وأن هذه السورة تسمى سورة الإخلاص وتسمى سورة التوحيد، لأنه لا إخلاص بدون توحيد، والتوحيد يشع فى كل كلمة من كلماتها..

وقد توالت رسالات السماء تدعو الناس الى عبادة هذا الإله الحق :

قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾[٢] وقد قال كل نبى لقومه: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾[٣] فلقى من قومه الإعراض والصدود : ﴿ **قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴾[٤] بل وهددوا أنبياءهم

(١) انظر : فتح البارى ٩/ ٦١، وصحيح مسلم بشرح النووى ٦/ ٩٤ ، ٩٥.

(٢) سورة الأنبياء ٢١ / ٢٥.

(٣) سورة الأعراف ٧ / ٥٩ ، ٩٥ ، ٧٣ ، ٨٥.

(٤) سورة إبراهيم ١٤/ ١٠.

وتوعدوهم، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ (١) .

وجاءت الرسالة الخاتمة والدنيا قد أطبق عليها ظلام الكفر، وخيم عليها ضلال الشرك، وجثم على صدرها كابوس الجهل، فوقف صاحب هذه الرسالة العظمى يبلغ عن الله رسالاته ويدعو الناس جميعًا إلى تفيؤ ظلال العبودية لله، والهروب من هجير العبودية للطاغوت، ولنقرأ فى ذلك قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

والآيتان من سورة البقرة وقبلهما حديث عن القرآن، وموقف الناس منه، فالناس إزاء القرآن أصناف ثلاثة : مؤمن به، مصدق لما فيه، يحل حلاله ويحرم حرامه، وهؤلاء هم المتقون الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون، ومكذب به جاحد لما فيه وهؤلاء هم الكافرون الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم، وهناك صنف ثالث خطير أعلن الإيمان وأبطن الكفر وهؤلاء هم المنافقون، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين وبعد أن عرض كتاب الله لهؤلاء الثلاثة وقف يناديهم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ . . فالمؤمن عليه أن يدوم على إيمانه وأن يَثْبُتَ عليه، والكافر عليه أن ينزع عن كفره وطغيانه، والمنافق عليه أن يعالج مرضه القلبى بأن يتوب إلى

(١) سورة إبراهيم ١٤ / ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة البقرة ٢ / ٢١ ، ٢٢ .

الله مما هو فيه وأن ينضوى بقلبه ولسانه ومشاعره مع المؤمنين الصادقين والعابدين المخلصين . .

إنه نداء من الكبير المتعال يأمر فيه الناس جميعًا بعبادته وحده قال ابن عباس -رضى الله عنهما- فى معنى قوله :﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾: وحدُّوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم، أى أفردوه بالطاعة والعبادة دون سائر خلقه، إنه حق الله على العباد يطالبهم به ويأمرهم به أمر إيجاب :

روى البخارى ومسلم وابن ماجه والإمام أحمد بأسانيدهم عن معاذ بن جبل -رضى الله عنه- قال : بينا أنا رديف النبى ﷺ ليس بينى وبينه إلا آخرة الرحل فقال «يا معاذ»، قلت : لبيك يا رسول الله، وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال : «يا معاذ» : قلت لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال : «يا معاذ بن جبل»، قلت لبيك رسول الله وسعديك، قال: «هل تدرى ما حق الله على عباده» ؟ قلت : الله ورسوله أعلم، قال : «حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا»، ثم سار ساعة، ثم قال : يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك رسول الله وسعديك قال : «هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوه»؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : «حق العباد على الله ألا يعذبهم» [1].

وإنها لدعوة قائمة على أصولها، مبنية على قواعدها، منطلقة من مقتضياتها وأسبابها، والآيتان تسوق أسبابا عدة : كل واحد منها يدعو الإنسان إلى أن يجعل عبوديته وطاعته لله وحده وأول تلك الأسباب : ما تلمحه وأنت تقرأ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، فلم يقل هنا «اعبدوا الله»، إنما قال اعبدوا ربكم : والرب فى كلام العرب يطلق لواحد م. ثلاث فهو السيد المطاع، والمصلح للشئ، والمالك له، والله -عز وجا

(١) صحيح البخاري ومعه فتح البارى ١١/ ٣٣٧ كتاب الرقاق / باب من جاهد نفسه فى طاعة الله.

المولى الذى وجبت طاعته، والمصلح أمر خلقه أفاض عليهم من نعمه، والمالك الذى له الخلق والأمر [1] ففى كلمة الرب : معنى الهيمنة والملك والسلطان، وفيها معنى التربية بما أسبغ على خلقه من جلائل النعم وما أفاض عليهم من واسع رزقه، وعظيم جوده مما لا يحصيه العد : ﴿وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها﴾ [2].

ولذلك قال طَلْقُ بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن اصبحوا تائبين وامسوا تائبين.

وقال الإمام الشافعى رحمه الله : الحمد لله الذى لا تؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها.

وقال القائل فى ذلك :

لو كل جارحة منى لها لغة ... تثنى عليك بما أوليت من حسن

لكان ما زاد شكرى إذ شكرت به ... إليك أبلغ فى الإحسان والمنن [3]

وإذا كانت الربوبية هى أول أسباب العبودية لله فإن السبب الثانى فى الآيتين هو ما ذكره فى قوله ﴿الذي خلقكم﴾ فأرشدهم بهذا لأمر واضح جلى لا يحتاج إلى دليل، فهم يشاهدون كيف يخرج الإنسان من العدم للوجود. وأن هذا أمر لا يقدر عليه أحد من الخلق؛ ولذلك لم يستطيعوا إنكار هذا إنما اعترفوا به لله، قال تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ

---

(1) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبرى ١/ ٦٢.

(2) سورة إبراهيم ١٤ / ٣٤ ، والنحل ١٦ / ١٨.

(3) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٤٠.

ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴿٣١﴾ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ [1].

وسبب ثالث وثيق الصلة بالسبب الثانى هو ما نجده فى قوله ﴿ والذين من قبلكم ﴾ فكما أوجدهم من العدم أوجد من سبقهم كذلك، وكان عليهم أن ينيبوا إلى الله الذى رباهم، وخلقهم، وخلق من قبلهم وأن يتقوه بالطاعة له، والاعتراف به، والإيمان به ربًا واحدًا لا شريك له.

وإذا كانت هذه أسبابًا ثلاثة تدعو الإنسان إلى توحيد ربه وقد ختمت بقوله تعالى: ﴿ لعلكم تتقون ﴾ فهناك أسباب ثلاثة أخرى تحملها الآية التالية ، وأولها ما نقرؤه فى قوله تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشًا ﴾ فهو - سبحانه - قدجعل الأرض لهم ولغيرهم ممهدة لا تميد بهم، فيسر لهم بذلك الحياة عليها، ومع أنه جعل ذلك لهم ولغيرهم، إلا أنه خاطبهم بقوله : ﴿ جعل لكم ﴾ ليشعروا بالمنة، والنعمة الإلهية عليهم..

«والفراش» كما قال ابن عباس وقتادة وأنس هو : المهاد والقرار، ولكن يبقى لاختيار كلمة الفراش ظل خاص، فالفراش بما فيه من الراحة والأمان، أمرٌ مقصود فى التعبير القرآنى هنا، والفراش بمعنى أنه جعلها مفروشة، أى : مبسوطة متسعة يسير فيها الإنسان حيث شاء، فلا يشعر بضيق أو تعب أو عناء، نعمة يقصد التذكير بها هنا فى مقام الامتنان بنعم الله التى تدعو إلى وجوب العبودية لله دون سواه، قال نوح لقومه - فيما حكى الله عنه - : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطًا ﴿١٩﴾ لتسلكوا منها سبلاً فجاجًا ﴾ [2].

---

(١) سورة يونس ١٠ / ٣٦ ، ٣٢.

(٢) سورة نوح ٧١ / ١٩ ، ٢٠.

وقال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١). وقال : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (٢).

أما السبب الثانى : فهو ما نقرؤه فى قوله - تعالى - : ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ بناء، وأى بناء !! إنها أمامهم مرفوعة بلا عمد، فمن رفعها ؟ ومن يمسكها ؟ ومن أنار كواكبها ؟ ومن وضع هذا النظام الرتيب العجيب، والذى لو اختل لحظة واحدة لانهدم ما ترى، وما لا ترى من عوالم السموات إن كلمة «البناء» قد فسرها المفسرون فقالوا : ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ : أى سقفاً، وهى كهيئة القبة، وهى سقف على الأرض، وقالوا : إنما سميت السماء سماءً لعلوها على الأرض وعلى سكانها من خلقه، وكل شئ كان فوق شئ آخر فهو لما تحته سماء، ولذلك قيل لسقف البيت سماؤه لأنه فوقه مرتفع عنه (٣).

ولكن اختيار كلمة «البناء» هنا أوسع من ذلك وأشمل، ففيها مع بيان نعمة الله الذى أوجد السموات بهذه الكيفية، وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجا، فيها كذلك مظهر لقدرة الله الذى أوجد هذا البناء على هذا النحو الذى تحار فيه العقول، فسبحانه من إله خالق قادر . .

والسبب الثالث - وبه تكتمل الأسباب الستة التى توجب على العباد أن يَدِينُوا بالدين الخالص، والتوحيد الذى لا يشوبه شرك - هو ما نتلوه من قوله - تعالى- : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ وظاهرة إنزال المطر من السماء مشاهدة واضحة لا تحتاج إلى إعمال الفكرة، وإنما هى

---

(١) سورة الزخرف ٤٣ / ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة الذاريات ٥١ / ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) انظر / جامع البيان : لابن جرير الطبرى ١ / ١٦٢ .

من بدهيات هذه الحياة، يعرفها الصغير والكبير والجاهل والمتعلم، فهى لا تخفى على أحد، وكل ما تحتاجه هو الوصول من وراء السبب إلى المسبب، ومن المنَزّل إلى المنزِل، ومن الخلق إلى الخالق، ولو وقفنا نتدبر ظاهرة الأمطار وكيف تتكون السحب، وكيف تسوقها الرياح إلى حيث يشاء الله، وكيف وفى أى ظروف وفى أى مناخ يصيب الله بها من يشاء ويصرفها عمن يشاء، وكيف تصفى ملوحتها لتصير عذبة ينبت بها الزرع ويدر بها الضرع وتحيا بها الخلائق، أقول لو وقفنا عند كل مرحلة من تلك المراحل لطال بنا الحديث، ولكن حسبنا أننا نراها من جلائل نعم الله، إذ يترتب عليها قيام الحياة الإنسانية : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [1] وتتوفر بها الثمرات، وما أكثرها ، وكم فيها من أسرار ودلائل وآيات بينات واضحات ؟؟ فهل الإله - وتلك بعض آلائه ونعمه على خلقه - يُجحد فضله، وتُنكر أياديه، ويُكفر به، ويتخذ من دونه آلهة ؟؟؟ لهذا جاء هذا النهى فى نهاية الآيتين ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

يقول الإمام ابن كثير - عليه رحمة الله - : وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل بها كثير من المفسرين كالرازى وغيره على وجود الصانع تعالى ، وهى دالة على ذلك بطريق الأوْلَى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية، واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها بحكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه واتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل عن وجود الرب - تعالى-، فقال : يا سبحان الله، إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟ وعن

(١) سورة الأنبياء ٢١ / ٣٠.

أبى حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم : دعونى فإنى مفكر فى أمر قد أخبِرتُ عنه : ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة، فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهى مع ذلك تذهب وتجئ وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا : هذا شئ لا يقوله عاقل، فقال : ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ؟؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه. وعن الشافعى - رضى الله عنه - أنه سئل عن وجود الصانع فقال : هذا ورق التوت : طعمه واحد ، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرًا وروثًا، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك، وهو شئ واحد.

وعن الإمام أحمد أنه سئل عن ذلك فقال : ههنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة وباطنه كالذهب الإبريز ، فبينا هو كذلك إذ تصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن، وصوت مليح - يعنى بذلك: البيضة، إذا خرجت منها الدجاجة - وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تأمل فى نبات الأرض ... وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصيات ... بأحداق، هى الذهب السبيك
على قُضُبُ الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز :

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شئ له آية ... تدل على أنه الواحد

ولذلك كان اتخاذ الأنداد لله ضلالا ليس بعده ضلال، وكانت عبادة غير الله جهلا وحمقًا وخروجًا عن مقتضى الفطرة المستقيمة، وقد روى الإمام أحمد فى حديث طويل عن النبى ﷺ فيما أمر الله به زكريا - عليه السلام -، ومن ذلك قول زكريا لبنى إسرائيل : «إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن، : أولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بورَق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده، فأيكم يسُرُّه أن يكون عبده كذلك، وأن الله خلقكم، ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا. . الخ ما قال عليه السلام» [1].

ومن العجب أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أن ما يعبده من دون الله، ومن جعله لله ندا يمتلك رزقًا أو سعادة أو شفاء، إنما يسلم الجميع بهذا لله الحق، ومع ذلك يتخذون معه أو من دونه آلهة تُعبد، ولذلك أمر رسول الله ﷺ أن يقول لأمثال هؤلاء : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ وأن يقول لهم : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [2].

وكم فى قوله - تعالى - : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : من لفتات قرآنية ومعانٍ ربانية، وكم فيها من تأنيب للمارقين من عبوديتهم لله، العابدين لسواه : إذ مَنْ هذا الذى يمكن أن يكون ندًا لله رب العالمين : من ؟؟

(١) انظر / تفسير القرآن العظيم : لابن كثير ١ / ٥٨ ، ٥٩.
(٢) سورة الزمر ٣٩ / ١١ - ١٥، ٦٤ - ٦٦.

إن كل قُوَى الأرض بل كل قُوَى هذا الكون لتتضاءل أمام قوة الإله القوى العزيز وكلها مربوبة محكمة مقهورة لسلطان الله القادر. ليس فيها شئ يستطيع أن يغير أو يُسَيِّر أو يُصَرِّف من أمـر الحياة قليلاً أو كثيرًا إلا بإذن من الله الكبير المتعال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (1).

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(2).

وقد بلغ الإسلام فى هذا المجال حدًا بعيـدًا فحمى بذلك جناب التوحيد أن يناله غبش أو تقترب من ساحته الشبـهات : فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رجل للنبى ﷺ ما شاء الله، ومـا شئت فقال. «أجعلتنى لله ندًا؟ قل ما شاء الله وحده» وعن ابن عباس أيضاً فى بيان المراد من قوله - تعالى - : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾. قال : «الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفـاة سوداء - أى: صخـرة سوداء - فى ظلمة الليـل، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فـلان، وحياتى، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصـوص البارحة، ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله، وشئت وقول الرجل لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانا، هذا كله شرك» (3).

فما بالك بمن عـبدوا أحجارًا وأوثانًا وشـجرًا وشمسًا وقـمرًا وبشرًا وهم يعلمون تمام الـعلم أن هؤلاء جميـعًا ضعـاف لا يملكون موتًا ولا حـياةً ولا

(1) سورة الروم ٣٠ / ٤٠.

(2) سورة يونس ١٠ / ٣٤ ، ٣٥.

(3) جامع البيان للطبرى ١ / ١٦٣، وابن كثير ١ / ٥٧.

نشوراً. ولذلك كان الإشراك بالله ظلماً عظيماً : ﴿يا بُنيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١) وفى الصحيحين عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : «أن تجعل لله نداً وهو خلقك..» الحديث (٢).

ولهذا أمر المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - أن يبين للمشركين مباينته التامة لطريقهم : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٣).

ونقرأ فى سورة الزمر هذه الآيات البينات : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③﴾ (٤) قال قتادة فى قوله تعالى. ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ : شهادة أن لا إله إلا الله (٥).

ومن قبل كنا نقرأ فى سورة الزمر - أيضاً - قول المولى - سبحانه - : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ⑪ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ⑫ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⑬ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ⑭ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (٦).

---

(١) سورة لقمان ٣١ / ١٣.

(٢) صحيح البخارى ومعه فتح البارى ٨٣/٤٩ كتاب التوحيد باب قول الله تعالى فلا تجعلوا لله أندادا وصحيح مسلم بشرح النووى ٢ / ٧٩ باب : الشرك أقبح الذنوب.

(٣) سورة الكافرون ١٠٩.

(٤) سورة الزمر ٣٩ / ٢ ، ٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤٥/٤.

(٦) سورة الزمر ٣٩ / ١١ - ١٥ ، ١٦.

كما رأينا فى أواخر هذه السورة المباركة رمى الكافرين بالجهل وبيانا لحقيقة أعمالهم، وأنها باطلة عاطلة عارية عن الفائدة والخير، وفيها الخسران المبين وذلك حيث يقول ربنا : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [1].

إنه الجهل والغواية والعمى عن الطريق الصحيح هو الذى أدّى إلى اختيار هذه الصفقة الخاسرة ، وأرداهم فى مهاوى الهلاك وجعلهم يعبدون مع الله أو من دونه آلهة أخرى، بل وأن يحاولوا زحزحة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - والمؤمنين معه عن طريقهم، وأنَّى لهم ذلك وقد أخلص رسول الله ومن معه العبادة لله - سبحانه - استجابة لأمر الله القائل : ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [2].

والقائل : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، والقائل لرسوله : ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦٦ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾ [3].

إن إخلاص العبودية لله أمر عرفه أهل الإيمان وساروا فى طريقه لا يبالون بتُّرهات أهل الباطل وسفاهتهم وجهلهم ولذلك ورد عن عبد الله بن الزبير أنه

(١) سورة الزمر ٣٩ / ٦٤ - ٦٦.

(٢) سورة غافر ٤٠ / ١٤.

(٣) سورة غافر ٤٠ / ٦٠ ، ٦٦ - ٦٨.

قال : كان رسول الله ﷺ يقول فى دبر كل صلاة : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» (1).

إن من يخلص عبوديته لله لا يعرف له ربًا ولا إلهًا سوى ربه وإلهه الحق، ولا يتقرب بشئ من الطاعات والقربات والنذور إلا لله، ولا يستغيث بمخلوق ولا يرجو من أحد من أصحاب القبور نفعًا ولا ضرًا، إنه عبد لله، وعبد لله وحده، لا يخاف، ولا يرجو، ولا يرغب، ولا يرهب إلا من الواحد الأحد الفرد الصمد المتصف بصفات الجلال والكمال..

٢- إخلاص العمل لله

إذا كنا قد عرفنا ما هو الإخلاص ، وأنه قسمان : اعتقادى وعملى، وفى الإخلاص الاعتقادى عرفنا ما جاء فى كتاب الله وسنةرسوله بيانًا لهذا الأساس المتين، وأن هذا اللون من الإخلاص يعنى إخلاص التوحيد لله، والعبودية المطلقة للرب المتعال ، وألا يتقرب العبد بأى قربة إلا لهذا الإله الحق، وأن هذا اللون أيضا هو أساس قبول كل عمل، وبدونه تضل الأعمال عن غايتها، ولا تصل الأقوال الى أمدها، وتختلط القيم، وتضيع الموازين، وتضطرب الطرق، ويحيا الإنسان فى متاهات الباطل : شقيًا بكل ما حوله ومن حوله، تعيسًا وإن جمع كنوز الأرض، قال تعالى : ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا**

(1) صحيح مسلم بشرح النووى ٥ / ٨٩، ٩٠ باب استحباب الذكر بعد الصلاة وصفته.

﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (1).

إلا إن هذا الإنسان الذى عرف ربه إلهًا واحدًا، وآمن به وأخلص له عبوديته ، يحتاج أيضًا إلى أن يخلص نيته فيما يعمل من أعمال، وما يقوله من أقوال، وما يقوم به من أفعال ، وبهذا يكمل المؤمن، ويتسق ظاهره مع باطنه، وينسجم نية وسلوكًا، ويصل إلى غايته التى خلقه الله من أجلها، وهذا هو الإخلاص العملى، الذى نرى معالمه واضحة جلية فى كتاب ربنا، وسنة نبينا وسيرة سلفنا الصالح.

والقرآن الكريم وهو يعبر عمن لم ينسجم ظاهره مع باطنه، ومن يفعل ما يفعل من أجل الناس لا من أجل ربه، يسلكه فى عداد الكافرين، ويضعه مع المكذبين بيوم الدين، ولا ترى في المواضع الخمسة التى ذكَرتْ الرياء والمرائين فى القرآن إلا أن هذه الصفة من صفات من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، يقول ربنا وهو يبين أثر الإنفاق فى سبيل الله ووجوب الإخلاص فى هذا العمل العظيم وما يحبطه من رياء وسمعة : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (2).

فالمال - وهو أحب شئ إلى النفس - إذا كان لله وفى سبيله، فإنفاقه

(1) سورة طه ٢٠ / ١٢٣ - ١٢٧.

(2) سورة البقرة ٢/ ٢٦٢ - ٢٦٤.

أحب شئ إلى أهل الإيمان الصادق وهذا ما يشير إليه قوله ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ فأضاف الأموال إليهم مع أن المال مال الله كما قال تعالى : ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [(١)]. واختار التعبير بقوله : ينفقون : ليدل على استمرارية إنفاقهم وأنها ليست حالة مؤقتة إنما هكذا يتكرر منهم الإنفاق ويتجدد بتجدد بواعثه، ومتقضياته. وهذا الإنفاق منهم واضح الهدف، بين المعالم : إنه فى سبيل الله ومن أجله لا رياء ولا سمعة ولا علوًا فى الأرض ولا فسادًا، ولهذا قال : ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ فهم إن أنفقوا سرا أو جهرًا لا يُتبِعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى.

والمَنُّ : هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها، والتقريع بها، وقيل: المن : هو التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه. والأذى: هو السب، والتطاول، والتشكى، فلا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهًا يحبطون به ما سلف من الإحسان، وترك المن والأذى هو محط الفائدة، وهو الذى يكسب المعروف، وإن قَلَّ بهاءه ورونقه، وهذا ما تفيده كلمة ﴿ثُمَّ﴾ فى هذا التعبير القرآنى : ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ لأنَّ المن أو الأذى يُذهب معنى الإحسان مهما عظم هذا الإحسان، إنه بالمن أو الأذى ينقلب من نعمة إلى نقمة ومن إحسان إلى إساءة، وهذا السلوك ليس من خلق المؤمنين الصادقين.

ومن امتثل وسار على هذا الدرب، درب الإخلاص لله فيما قام به من بر وصدقة جدير بهذا الثواب : ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .. ويا نعم هذا الثواب : إذ اختص الله هؤلاء المخلصين له بأجر عظيم، ولِمَ لا يكون عظيمًا وهو عند ربهم؟؟ وإنما تعظم الهدية بعظم

(١) سورة الحديد ٥٧ / ٧.

مهـديها، والرب : رب العالمين ولكنه هـنا يضيفـه إلى هؤلاء المنفقين ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ تشـريفًا لهم وتكريمًا، ومنـزلة أخرى هى أمل بنى الإنسـان، وخيـال يراود كل من على وجـه الأرض، ذلكم أن الإنسان إنما يحـيا بين مـاض قد انقضى وحاضر يعيشه ومستقبل ينتظره، وقد يكون ماضيه تعسًا شقيا؛ فيحزن عليه وقد يكون واقعه مرًا قاسيًا لا يملك تـغييره فيأسى، ويتقطع حسرات من أجله، وقد يكون مستقبله مظلمًا كئيبًا فهو فى وجل منه، فهو بين حزن يقتله وخوف يؤرقه، وهذا حـال كثير من الناس، ولكن المنفـقين فى مأمن من هذا كله، إنهم آمنون مستقرون هادئون سعداء فى دنياهم وأخراهم : ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ نعم لا خوف عليـهم فيما يستـقبلونه من أيام دهرهم ولا مما يلقاه الناس من هول يوم القـيامة، ولا هم يحزنون على مـا فاتهم من حظوظ الدنيا لأنهم راضون عن الله ، وسوف يفرحون حين يرون ما أعد الله لهم عنده من نعيم مقيم، وخير عميم، وأنهار، وقصور، وجنات نعيم.

وهذا الخير كله وهذا الجـزاء كله يذهب به الرياء، ويحبط ثوابه المن بالصدقات؛ ولذلك قال تعالى : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ فالكلمـة الطيبـة تصدر من قلب طاهر سـواء كانت هذه الكلمة الطيـبة لمن جاءك سائلا فـرددته ردًا جميلا واعـتذرت له فى أدب، وأخوة، ومودة، أو كـانت هذه الكلمة لغيره من الـناس، والمغفرة والعفو عن زلات الناس وقبول عذرهم، وستر عوراتهم هذا كله وإن قلَّ خَيْرٌ من صدقة - وإن عظمت - يتبعها أذى.

فهذا الذى تصدق جعل صدقته بابًا للشهرة على حساب كرامة الآخرين، وما من مناسبة إلا وذكـر فيها لمن تصدق عليه أنه صـاحب فضل وأياد عليه، فهل ترون صدقـة هذا قد بلغت غايتهـا أو انعكس المقصود منها ؟؟ وليـته ما تصدق، لقد نسى هذا المسكين أنه فقير إلى ربه الغنى وأن ما بين يديه محض

الفضل ...ب الكريم، وأن الله إن كـان قد أخَّر عنه العذاب، فـهذا حلم عظيم من على هذا الذى أساء لخلق الله، فليتذكـرْ إذَنْ حاجته لربه وستر الله له وعليه، ومن هنا أتى ختام الآية ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ قـال : «الكلمة الطيبة صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق» (١).

ولننظر إلى بعض ما جاء فى السنة المطهرة مما تقشعر له الأبدان تنفيرا من المن وأصـحابه روى الإمـام مسلم بسنده عن أبى ذر قـال : قال رسـول الله ﷺ: «ثلاثة لايكلمهم اللـه ولا ينظر إليهم ولا يزكيـهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» (٢).

وعن عبد الله بن عمر عن أبيـه قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه، ومدمن الخمر ، والمنان بما أعطى» (٣).

ولهـذا نهى الله المؤمنين عن هذا السلوك فـقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

إنه الإيمان الذى ينادى الـله به عـباده هـو الذى يَحُـول بين المؤمنين والوقوع فى هوى النفس التى تقـود صاحبها إلى حب الظهـور، والفخر والسمعـة، والرياء فيَمُنُّ على الناس بما أعطى، ويؤذيهم، ويفـضحهم، وحال من أحـبط عمله بالمن والأذى، كحـال من ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر.

(١) صحـيح مسـلم بشرح النووى ٧ / ٩٥ باب كل نوع من المعـروف صدقـة، جـ ١٦ ص ١٧٧ باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء.

(٢ ، ٣) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣١٨.

فكلاهما لا يريد بعمله وجه الله إنما كل منهما طلب منزلة عند الناس، والله يضرب لهؤلاء المرائين مثلا حيًا نراه فى قوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ فمن ينظر إلى التراب يخيل إليه أن هنا أرضًا خصبة تجود بالخير يقتات بها الناس، ولكن حين هطلت الأمطار جرفت هذا التراب فإذا بحجر صلد من الصخور التى لا تلين، لا ينبت زرعًا ولا يقبل غرسًا.

وهكذا المرائى لا تنفعه نفقة ولا يجد لها عند الله ثوابًا، إن هذا العطاء من المرائين كان التراب الذى غطى على تلك القلوب التى هى كالحجارة أو أشد قسوة، ولكن سرعان ما انزاح هذا التراب وظهرت هذه القلوب القاسية على حقيقتها؛ فإذا بها لا خير فيها لا لنفسها ولا لغيرها ﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.

وقد روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله - تبارك وتعالى -: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك : من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه».

يقول الإمام النووى - عليه رحمة الله - فى معنى الحديث، معناه : أنا غنى عن المشاركة وغيرها فمن عمل شيئًا لى ولغيرى لم أقبله بل أتركه لذلك الغير والمراد أن عمل المرائى باطل لا ثواب فيه ويأثم به [1].

بل ربما أودى بصاحبه فى النار ولنقف طويلاً عند هذا الحديث الذى رواه مسلم والترمذى والنسائى عن شفى بن ماتع الأصبعى - رضى الله عنه - أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدِّث الناس، فلما سكت

---

(١) النووى على مسلم جـ ١٨ ص ١١٦.

وخلا، قلت له : أسألك بحق وحق، لما حدثتنى حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة : أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة - أى شهق شهقة تحسر - فمكثنا قليلا ثم أفاق، فقال : لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ فى هذا البيت، ما معنا أحد غيرى وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق ومسح عن وجهه، وقال أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو فى هذا البيت، ما معنا أحد غيرى وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًا على وجهه، فأسندته طويلا ثم أفاق فقال : حدثنى رسول الله ﷺ : «أن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضى بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل فى سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ، ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى ؟ قال : بلى ، يارب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له كذبت ، وتقول الملائكة كذبت، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان قارئ، وقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسِّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى، يارب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم، وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : فلان جواد، فقيل ذلك، ثم يؤتى بالذى قتل فى سبيل الله، فيقول الله له : فى ماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلتُ حتى قتِلتُ، فيقول الله له : كذبت، وتقول له الملائكة : كذبت، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جرئ، فقد قيل ذلك، ثم أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

وفى رواية مسلم حين يسأل الله كل واحد من الثلاثة ويبين كل واحد منهما نيته فيما عمل «ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار» [1].

فهل رأيت أعظم عملا من هؤلاء الثلاثة؟ وهل رأيت كيف ضاع هذا العمل العظيم كله؟ وكيف قضى عليه هوى النفس وحبها فى الثناء والذكر وحسن الأحدوثة عند الناس ؟ إنها الأهواء التى تهب على كل عمل صالح فتطفئ ما فيه من نور وتذهب ما فيه من بهاء ورواء وتبقيه عملا تافها لا قيمة له ولا أثر، وانظر معى لحال الصحابى الجليل : أبى هريرة - رضوان الله تعالى عليه - وهو من هو جهاداً وعلمًا ودينًا وقربًا من رسول الله ﷺ، كيف عظم عنده الأمر، وهاله الخطب، وتذكر هذا الموقف الرهيب يوم القيامة وحال أصحاب تلك الأعمال العالية وكيف ضاعت أعمالهم وحبطت أجورهم فكان أن شهق شهقة أدت إلى حالة من الإغماء، وكلما أفاق وأراد أن يحدث سائله بما سمع من رسول الله ﷺ شهق فأغمى عليه، وهذا من شدة تأثره وخوفه من الإله الجليل، فرضى الله عن أبى هريرة وعن أصحاب رسول الله أجمعين.

وقد دخل شفى بن ماتع هذا الذى روى الحديث عن أبى هريرة على معاوية بن أبى سفيان فذكر له ما سمع من أبى هريرة، فماذا كان ؟ وماذا قال؟ قال معاوية -رضى الله عنه-، قد فعل بهؤلاء هكذا فكيف بمن بقى من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاء شديدا حتى ظن الحاضرون أنه هالك، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال : صدق الله ورسوله : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [2].

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٣ ص ٥٠ باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار والترمذى فى الزهد / ما جاء فى الرياء والسمعة، والنسائى فى الجهاد/ باب من قاتل ليقال فلان جرئ.

(٢) سورة هود ١١ / ١٤ ، ١٥.

وفي رواية أخرى : ثم تعوذ بالله من النار، وتلا : ﴿أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [(١)].

وفي سورة النساء يقول تعالى : ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴿٣٧﴾ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا﴾[(٢)].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين نرى أن الله قد ساق صفة الرياء مع صفات ذميمة كلها من صفات الكفر، والكافرين فقبل هاتين الآيتين أمر الله بعبادته وحده لا شريك له، ثم أمر بالإحسان إلى خلق الله ثم ختم الآية بقوله : ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا﴾ ثم قال: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ الآيتين. فتجد هذه الصفات : الاختيال والفخر والبخل والدعوة إلى البخل وكتمان العلم، والكفر بالله ومراءاة الناس بالإنفاق، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وملازمة الشيطان.. ومن جمع هذه الصفات خرج عن إنسانيته وأصبح شيطانًا مريدًا وجبارًا عنيدًا، ﴿ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا﴾.

وفي سورة النساء أيضاً نقرأ قول الله تعالى : ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴿١٤٢﴾ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾.

فهذا صنف من الناس آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه خداعًا للمؤمنين ليصل

(١) سورة الكهف ١٨ / ١١١.

(٢) سورة النساء ٤ / ١٤٢ ، ١٤٣.

إلى مآربه الخسيسة ويحظى بالخير عند المسلمين ولكن هذا الخداع لا يخفى على علام الغيوب.

هؤلاء المنافقون إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، لأنهم لا نية لهم فيها، بل ولا يعتقدونها إنما يفعلون ذلك مداراة للمسلمين، ولهذا يتخلفون كثيرًا عن الصلاة التى لا يرون فيها -غالبًا- كصلاة العشاء وقت العتمة وصلاة الصبح فى وقت الغلس، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما، لأتوهما ولو حبوا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلى بالناس ثم أنطلق معى برجال ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار» وفى رواية : «والذى نفسى بيده لو علم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد الصلاة، ولولا ما فى البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار» (١).

فهؤلاء المنافقون يشعرون بثقل الصلاة عليهم، ولا يخفون لها سراعًا فى بشر وترحاب، وقد اختل الميزان فى أيديهم فإن أحدهم لو دعى إلى عرق سمين أومرماتين حسنتين (والمرماة: ما بين ظلفى الشاة أو هى ظلف الشاة) لو دعى إلى هذا الشئ الحقير لأجاب، ولكنه حين يدعى إلى الصلاة يتقاعس، لأنه لا يؤدى ذلك إلا رئاء الناس.

وفى سورة «الماعون» ما يؤيد هذا المعنى حيث يقول ربنا : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ

(١) رواه البخارى جـ ٢ ص ١٢٥ باب وجوب صلاة الجماعة، ومسلم جـ ٥ص ١٥٤ باب فضل صلاة الجماعة.

الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

فالتكذيب بيوم الدين، يوم القيامة، والقسوة على الضعاف، وانتزاع الرحمة من القلب وترك الصلاة والغفلة عنها ومراءاة الناس بأعمالهم وصلاتهم، ومنع كل معونة عن خلق الله. كلها صفات يتصف بها هؤلاء الكافرون وهؤلاء المنافقون، والكفر والنفاق صنفان لشئ واحد إلا أن الكافر أعلن عن كفره والمنافق أظهر الإيمان وأبطن الكفر، ولذلك جمعهما الله معًا فى جهنم فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (١).

وفى سورة الأنفال نرى الرياء من شأن المشركين الذين جاءوا يحادون الله ورسوله فأذلهم الله، وأخزاهم وردهم على أعقابهم خاسرين بعد أن قتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر يقول تعالى : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٢).

فالله - سبحانه - يلفت أنظار المؤمنين إلى حالة رأوها وشاهدوها هى حالة قريش حين خرجت من مكة فى قرابة ألف مقاتل فى فخرها وخيلائها لترهب محمدًا وأصحابه فكان اللقاء فى بدر وكان ما كان من تدبير الله ونصره، يقول ابن عباس -رضى الله عنهما- : لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورحالكم وأموالكم، فقد نجاهم الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام - فنقيم عليها ثلاثًا، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا.

---

(١) سورة النساء ٤ / ١٤٠.

(٢) سورة الأنفال ٨ / ٤٧.

وقال قتادة : كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبى الله يوم بدر خرجوا ولهم بغي وفخر، وقد قيل لهم يومئذ : ارجعوا فقد انطلقت عيركم وقد ظفرتم، قالوا : لا والله، حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا، قال: وذكر لنا أن النبى الله ﷺ قال يومئذ : «اللهم إن قريشًا قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتحادك ورسولك».

يقول ابن جرير فى معنى الآية : ولا تكونوا أيها المؤمنون بالله ورسوله فى العمل بالرياء والسمعة وترك إخلاص العمل لله، واحتساب الأجر فيه كالجيش من أهل الكفر بالله ورسوله الذين خرجوا من منازلهم بطرًا ومراءاة الناس بزيهم وأموالهم وكثرة عددهم وشدة بطانتهم (١).

أرأيت أوصاف المرائين فى كتاب الله ؟؟ إنها - حقا - أوصاف ذميمة وكلها من صفات أهل الكفر والضلال، والنفاق. والطريق الصحيح هو الإخلاص، فإنما الأعمال بالنيات كما قال المصطفى ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (٢).

كما أنه هو الطريق المؤدى إلى الغاية المحمودة والعاقبة المنشودة فهو نجاة فى الدنيا والآخرة، فعن عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إذا أنزل الله بقوم عذابًا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم» (٣).

---

(١) جامع البيان : لابن جرير الطبرى مجلد ٦ جـ ١٠ ص ١٦ - ١٨.

(٢) أخرجه الجماعة إلا الموطأ.

(٣) رواه البخارى فى الفتن باب إذا أنزل الله بقوم عذابا ١٣ / ٥٠ ، ٥١ ومسلم فى صفة الجنة باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت.

والشيطان ليس له على المخلصين من سبيل فقد قال ما حكى الله عنه : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١).

ولذلك رأينا فى كتاب الله ما فيه من رعاية الله لأنبيائه ورسله وكيف أخلصهم ونجاهم واختارهم واصطفاهم فيوسف -عليه السلام- يقول الله فيه : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢).

وفى موسى يقول عز من قائل : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ (٣).

وفى سورة «ص» نرى إكرام الله لداود، ولسليمان، وأيوب، ومدح الله لهم ثم يقول -سبحانه- : ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ (٤).

فقد نجى الله هؤلاء بإخلاصهم وعبوديتهم لله، ولذلك تقرأ هذه السنة الإلهية فى الأمم المكذبة حيث يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٥) نعم ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ هؤلاء نجاهم الله من العذاب فى الدنيا ولهم فى الآخرة حسن المآب.

---

(١) سورة الحجر ١٥/ ٣٩ ، ٤٠.

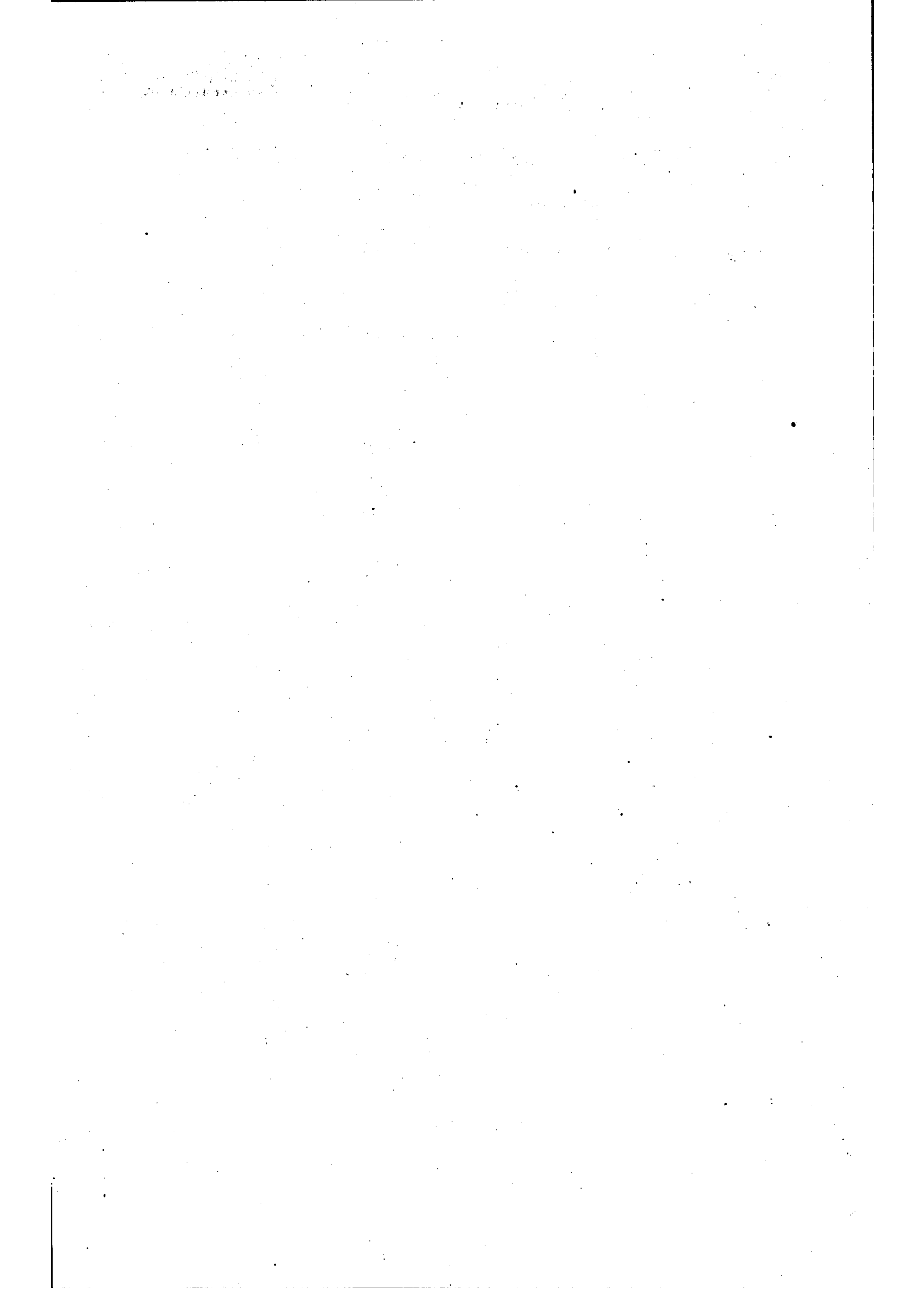
(٢) سورة يوسف ١٢ / ٢٤.

(٣) سورة مريم ١٩ / ٥١.

(٤) سورة ص ٣٨ / ٤٥ - ٤٧.

(٥) سورة الصافات ٣٧ / ٧١ - ٧٤.

إن الإخلاص ينجى أصــحابه من كل هم وكرب، وفى الحــديث المتفق عليه فى قصة الثلاثة الذين آواهم الغار، وسقطت صخرة سدت عليهم بابه ولم يجــدوا ما يرفع عنــهم هذا البلاء ســوى أن يتقــربوا إلى الله بصــالح أعمالهم وكل منهم يذكر شيئًا من عمله الصالح ثم يقول : «اللهم إن كنت فعلــت ذلك ابتغاء وجــهك ففــرج عنا ما نحن فــيه، فــانفرجت الصــخرة فخرجوا يمشون».



الفصل الثانى

الصدق

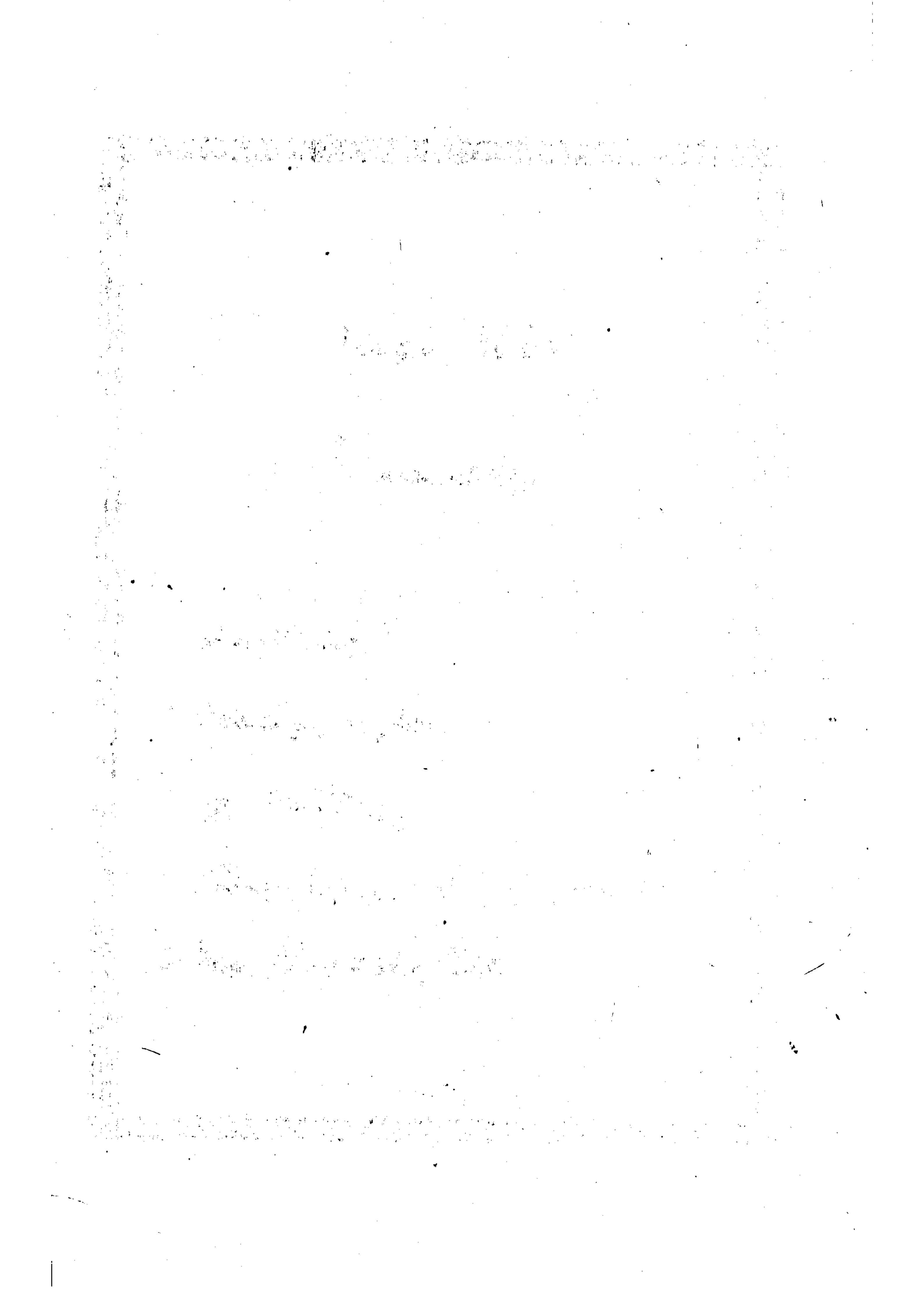
١- ما هو الصدق ؟

٢- الصادقون : من هم ؟

٣- جزاء الصادقين.

٤- الكذب وأثره فى حياة الفرد والجماعة.

٥- قضاء الإسلام على الكذب.



الفصل الثانى

«الصدق»

١- ماهو الصدق ؟؟

إذا كنا قد تحدثنا عن الإخلاص ، فعرفنا الكثير مما جاء فى هذا الباب من كتاب الله وسنة رسوله - صلوات الله وسلامه عليه-، فلننتقل إلى موضوع آخر وثيق الصلة بموضوعنا الأول، ذلكم هو الصدق، لنقف وقفات متأنية عند ما ورد فى ذلك من توجيهات ربانية وإرشادات نبوية، تذكرة وتبصرةً، وتثبيتًا وتدعيمًا، وحثًا على سلوك هذا الطريق المشرق المنير ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فما هو الصدق ؟ ومن هو الصادق ؟ وما هى آثار الصدق فى حياة الفرد والجماعة ؟ وما الجزاء الذى أعده الله للصادقين ؟ والحديث عن الصدق سيسوقنا - حتمًا - إلى الحديث عن الكذب، لنعرف - بإذن الله - ما هو الكذب ؟ ومن هو الكاذب ؟ وما هى آثار الكذب فى حياة الفرد والجماعة ؟ وما هو الجزاء الذى أعده الله للكاذبين ؟ إلى غير ذلك مما سنراه ونحن نتدبر القرآن العظيم وهدى الرسول الكريم.

ونعود لنتساءل : ما هو الصدق ؟؟

إن مادة الصدق فى لغة العرب التى نزل بها كتاب الله تدور كلها حول الكمال فى كل شئ، والصلابة والقوة والثبات، ولذلك قالوا بأن الصدق هو : مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم، وهو : الصلابة والشدة، وهو : الأمر الصالح لا شية فيه من نقص، أو كذب، والصدق : الكامل من كل شئ يقال : رمح صدق : مستو صلب ، ورجل صدق اللقاء : ثبت فيه [1].

(١) انظر المعجم الوسيط للدكتور إبراهيم أنيس وآخرين / مجمع اللغة العربية بمصر ط الثانية بدار المعارف ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م جـ ١ ص ١١.

يقول الراغب الأصفهانى : الصدق والكذب أصلهما فى القول : ماضيًا كان أو مستقبلا وعدًا كان أو غيره، ولا يكونـان بالقصد الأول إلا فى القول ولا يكونان من القول إلا فى الخبر دون غيره من أنواع الكلام، ولذلك قال تعالى : ﴿ومَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّه حَديثًا﴾ ، ﴿ومَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّه قِيلاً﴾، ﴿واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ ، وقد يكونان بالعرض فى غيره من أنواع الكلام كالاستفهام والأمر والدعاء، وذلك نحو قول القائل : أزَيدٌ فى الدار ؟؟ فإنه فى ضمنه إخبار بكونه جاهلا بحال زيد، وكذا إذا قال : واسنى، فى ضمنه أنه محتاج إلى المواساة، وإذا قال : لا تؤذنى ، ففى ضمنه أنه يؤذيه، والصدق : مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معًا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقًا تامًا، بل إما أن لا يوصف بالصدق وإما أن يوصف تارة بالصدق، وتارة بالكذب على نظرين مختلفين كقول كافر إذا قال من غير اعتقاد : محمد رسول الله، فإن هذا يصح أن يقال صدق لكون المخبر عنه كذلك، ويصح أن يقال : كذب لمخالفة قوله ضميره.

وللوجه الثانى : أكذب الله المنافقين حيث قالوا : إنك لرسول الله فقال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [(١)].

ومادمنا قد عرفنا أن الصدق يعنى الوضوح، والصراحة، والنقاء، واستواء الظاهر مع الباطن دون التواء أو مكر أو خداع فإن هذا يعنى: الكمال الإنسانى، والصلابة فى القول والقوة فى الخير والثبات على المبدأ، وتلك معان رائدة جاء الإسلام بها وجعلها واقعًا مشهودًا فى حياة بنى الإنسان، وبناها على أسس ثابتة من الإيمان بالله وبما جاء فى كتابه وعلى ألسنه رسله، فلنتجولْ فى رياض القرآن والسنة نقطف من ورودهما وأزهارهما ما تنشرح به الصدور وتقربه العيون.

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس للإمام اللغوى محمد مرتضى الزبيدى / المجلد السادس ص ٤٠٤ .

وأول ما يطالعنا فى باب الصدق هو اتصاف الحق تبارك وتعالى به، وذلك ما تجده فى كثير من الآيات، تقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [1] وقوله فى سورة الفتح : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [2] وقوله فى سورة النساء : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [3] وقوله فيها أيضاً : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [4] ، وقوله فى سورة الأحزاب : ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [5] فهو سبحانه صادق فيما أخبر به ووعد به وكل ما يعارض قول الله زور وكذب وبهتان، وكل شك فى صدق وعد الله ضلال وكفر وطغيان.

والصدق من شيم المرسلين وصفات النبيين بل إن الصدق علامة بارزة وشرط أكيد فيمن اختارهم الله، واصطفاهم لتبليغ رسالاته، ولذلك وصف النبى ﷺ قبل بعثته بالصادق الأمين ، وقالت له السيدة خديجة أم المؤمنين -رضى الله عنها- لما رجع من غار حراء ترجف بوادره حين جاءه جبريل بالرسالة : «أبشر، كلا والله، لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث «يقول ابن كثير : وقد كان مشهوراً بذلك -صلوات الله وسلامه عليه- عند الموافق والمفارق» وتحمل الْكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدوم وتَقْرى الضيف وتعين على نوائب الحق» [6].

وحين أمره ربه بإظهار دعوته وقال له : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [7].

صعد الصفا ثم نادى يا صباحاه، فاجتمع الناس إليه : بين رجل يجئ

(١) سورة آل عمران ٣ / ٩٥.
(٢) سورة الفتح ٤٩ / ٢٧.
(٣ ، ٤) سورة النساء ٤ / ٨٧ ، ٧٩.
(٥) سورة الأحزاب ٢٣ / ٢٢.
(٦) انظر / السيرة لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد جـ ١ ص ٣٩٤، ٣٩٠.
(٧) سورة الشعراء ٢٦ / ٢١٤.

إليه ورجل يبعث رسوله فقال رسول الله ﷺ : «يا بنى عبد المطلب ويا بنى فهر، ويا بنى لؤى، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» وفى رواية أخرى : قال : «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا مصبحتكم من هذا الجبل أكنتم مصدقى، قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا» [١].

وهكذا جميع المرسلين ما كذبوا قط وما استطاع واحد من أقوامهم أن يتهمهم بالكذب فى قليل أو كثير وقد ذكر القرآن من صفات إسماعيل أنه : ﴿ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾ [٢] ومما يذكر فى صدق وعد إسماعيل -عليه السلام- ما رواه ابن أبى حاتم من طريق الثورى، أنه بلغه أن إسماعيل -عليه السلام- دخل قرية هو ورجل فأرسله فى حاجة وقال له إنه ينتظره فأقام حولا فى انتظاره، ومن طريق ابن شوذب، أنه اتخذ ذلك الموضع مسكنًا فسمى من يومئذ صادق الوعد . . [٣].

وحين ينفخ فى الصور فيقوم الناس لرب العالمين ماذا يقول المكذبون : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ؟ فيأتيهم الرد من المؤمنين والملائكة : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [٤].

وملازمة الصدق كذلك من صفات الأنبياء والصالحين : وفى القرآن ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [٥] وفيه : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [٦] وفى القرآن ﴿ فَأُوْلَئِكَ

---

(١) انظر ابن جرير الطبرى : جامع البيان م ٩ جـ ١٩ ص ١٢، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ٣٤٩، وفتح البارى جـ ٨ ص ٥٠١ كتاب التفسير / باب / وأنذر عشيرتك الأقربين.

(٢) سورة مريم ١٩/ ٥٤.

(٣) فتح البارى جـ ٥ ص ٢٩٠ / كتاب الشهادات / باب من أمر بإنجاز الوعد.

(٤) سورة يس ٣٦ / ٥٢.

(٥ ، ٦) سورة مريم ١٩ / ٤١ ، ٥٦ ، ٥٧.

مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (١).

وقد قال صاحب يوسف ما حكى الله عنه : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ (٢) فسماه صديقًا لما شاهد فى صحبته من صدق القول والعمل.

ومريم - عليها السلام - التى ﴿صَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ سماها القرآن صديقة فقال : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (٣).

ولا يتأتى هذا إلا بعد مجاهدة النفس على التزام جانب الصدق، عن ابن مسعود -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال : «إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا»، (٤) وفى رواية الأعمش : «إن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب».

وإذاكان الأصل فى الصدق أن يكون فى القول؛ فإنه يمتد إلى جوانب أخرى من حياة الإنسان المؤمن فهناك صدق النية وصدق العزيمة وصدق الإيمان وصدق الجهاد وصدق الطاعة وكلها داخلة فى باب الصدق.

---

(١) سورة النساء ٤ / ٦٩ ، ٧٠.

(٢) سورة يوسف ١٢ / ٤٦.

(٣) سورة المائدة ٥ / ٧٥.

(٤) فتح البارى جـ ١٠ ص ٥٠٧ كتاب الأدب باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

٢- الصادقون : من هم ؟؟

لقد ورد تعريف الصادقين فى عدة مواضع من القرآن الكريم، حيث يقول ربنا فى سورة البقرة : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١).

ويقول فى سورة الحجرات : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٢).

وفى سورة الحشر يقول - سبحانه - فى صفة المهاجرين : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٣).

وفى سورة الحديد يقول - عز من قائل - : ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ (٤).

فمن هذه الآيات يتضح لنا من هو الصادق ومن هم الصادقون ففى آية سورة البقرة يرد الله على أدعياء التدين الكاذب من أهل الكتاب الذين أثاروا ضجة حين حوّل الله المسلمين من التوجه فى صلاتهم إلى بيت المقدس إلى

---

(١) سورة البقرة ٢ / ١٧٧.
(٢) سورة الحجرات ٤٩ / ١٥.
(٣) سورة الحشر ٥٩ / ٨.
(٤) سورة الحديد ٥٧ / ١٨ ، ١٩.

الكعبة المشرفة، فقال هؤلاء : ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ ؟ فرد الله عليهم ردًا حاسمًا مفحمًا : ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى أن قال : ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ - إلى أن قال : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

فمن استكمل هذه المبادئ وتلك الأسس فهو الصادق حقًا وهو المتقى ربه صدقًا فقد جمعت الآية الكريمة بين الاعتقاد والعمل، وبين المنهج والسلوك، وبين الأساس والبناء : فالإيمان بالله ربًا واحدا وباليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار، والإيمان بالملائكة والكتب المنزلة على أنبياء الله والإيمان بالنبيين جميعا، وأنهم ختموا بمحمد ﷺ هذا الإيمان أساس كل عمل صالح وبدونه لا قيمة لأى عمل وهو بحاجة إلى صدق، فلو لم يصدق العبد ربه فى الإيمان بهذا كله لكان من الضالين الفاسقين.

فلننظر فى البناء الذى أقيم على هذا الأساس : إنه شامل لعلاقة الإنسان بنفسه، وبغيره إننا نرى قول الله -تعالى- : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ فمع حبهم للمال وحاجتهم إليه يجودون به على هؤلاء جميعًا، وفى الحديث عن أبى هريرة -رضى الله عنه - : «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر [(١)]» فهؤلاء كما ذكرهم الله : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [(٢)] لقد صدقوا فى برهم بالمحتاجين والضعفاء ولم يمنعهم حبهم للمال - وهو حب غريزى فطرى - أن يجودوا بالخير وأن يسعدوا به الآخرين.

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة الحشر ٥٩ / ٩.

وفى قوله : ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكَاةَ﴾ : مايشير إلى قيامهم بحقوق الله وحقوق خلق الله، فإقامة الصلاة : أداؤها على وجهها الشرعى بالمحافظة على أوقاتها والقيام بواجباتها وأركانها وسننها، وإقامتها : أداؤها فى جماعة والإعلان عنها، وفرق بين من يصلى ومن يقيم الصلاة، ولذلك ربط القرآن بين التمكين فى الأرض وإقامة الصلاة فقال : ﴿الَّذينَ إن مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهى أمور ثلاثة تحتاج إلى دولة، وحكم وسلطان، فالإقامة أمر زائد على مجرد الصلاة، لأنه يعنى أمورًا كثيرًا؛ فالإقامة تحتاج إلى مؤذن، وإمام، ومسجد، وجماعة وهذا يستدعى تعليم أئمة، وتوفير إمكانات، وإيجاد وسائل وخطة دعوة، وتربية نشء وجيل ، ونشر ثقافة إسلامية ، وهذا كله يحتاج إلى صدق فى الأداء، وإخلاص فى التنفيذ، وإصرار على بلوغ الهدف، والمؤمنون قد صدقوا فى ذلك كله، **«وإيتاء الزكاة»** تلك الفريضة التى فرضها الله على المؤمنين تزكية للنفس، وتطهيراً للمال، وإشاعة للخير فى جنبات الأمة، إنها حقًا زكاة، والزكاة: هى النماء والزيادة وكم للزكاة من أثر مشكور فى حياة المعطى والآخذ، إنها تجمع القلوب على الحب، وتنتزع من النفوس عناصر البغض والحقد، فلا تجد فى أمة الإسلام هذا الذى تسميه مجتمعات الضلال **«بصراع الطبقات»** أو **«سيطرة رأس المال وطغيانه»** فأمة الإسلام فى مأمن من هذا كله، وإذا جمع المؤمن بين الفريضة الواجبة وصدقة التطوع فقد جمع الخير من أطرافه، إذ فى المال حقوق أخرى سوى الزكاة، وإيتاء الزكاة فى حاجة إلى صدق : صدق فى النية، وصدق فى اختيار المال المدفوع، وصدق فى بر من يستحق البر، وصدق فى طلب مرضاة الله.

أما قوله : ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ فإنه بيان لصفة ملازمة للصادقين، إنها صفة الوفاء، وبين الصدق، والوفاء إخاء وترابط فلا وفاء بلا

صدق ولا صدق بلا وفاء، إنه وفاء شامل لكل جوانب الحياة، متصل بالخلق ومتصل بالخالق، فحيثما كان عهد كان وفاء فإن عاهدوا الله وفوا، وإن عاهدوا الناس صدقوا، قال تعالى : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [1] ولنا فى موضوع الوفاء لقاء بإذن الله فى الفصل التالى، ولكننا هنا نبين أن الوفاء سمة من سمات الصادقين، وكم يحتاج الوفاء إلى صدق. . وما أعظم أن يصدق المؤمن فى وفائه بعهده لربه وعهده للناس. ولنتأمل قول الله - تعالى- : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ إنه لم يقل والصابرون فى البأساء والضراء كما قال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ إنما أتى بها هكذا: والصابرين : فهى صفة قائمة بذاتها تستحق المدح والثناء والإعجاب، ويختار مواطن الصبر التى يصبر فيها هؤلاء الأقوياء فإذا بكل واحد منها يهد الجبال ويضعف العزائم ولكن صدق الإيمان جعلهم أقوى من الجبال الرواسى وأكبر من أن تخور منهم العزائم. . فالموطن الأول : البأساء ، والبأساء: من البؤس وهو شدة الفقر، وكم تصنع الحاجة بأصحابها، وكم يصنع الفقر بالضعاف من الناس ولكن هؤلاء صبروا فى هذه المواطن وانتصروا على هذا الضعف، وهذا هو رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- كان يمر عليه الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما كان يوقد فى بيته نار، ومات ﷺ ولم يشبع من طعام الشعير قط، وكان أصحابه على هذا المنهج فصبروا وصدقوا فى صبرهم.

أما الضراء، فهى الضر، والضر هو المرض قال تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ [2].

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ / ٢٣.

(٢) سورة الأنبياء ٢١ / ٨٣ ، ٨٤.

وقد يصبر الإنسان على الفقر ولكن هل يصبر على المرض ؟ إن ذلك يحتاج إلى صدق فى العزيمة، والثبات أمام الشدة والتسليم المطلق لله، وهكذا كان المؤمنون الصادقون، ويأتى الموطن الثالث : ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى حين لقاء الأعداء فى ميادين القتال ليمثل قمة الصبر، فحين يتطاير شرر المعركة وتطيح الرءوس وتسيل الدماء، تنخلع قلوب وتذوب أفئدة، لأن الأمر هنا ليس مجرد حالة من الفقر أو حالة من المرض تزول وتنتهى ولكن الأمر هنا أمر حياة وموت ومع ذلك فقد صبر هؤلاء الأبطال فى مثل هذا الموطن.

هذه هى صفات الصادقين التى من استكملها فقد استكمل الإيمان، يقول العلامة الألوسى : الآية كما ترى مشتملة على خمس عشرة خصلة وترجع إلى ثلاثة أقسام : فالخمسة الأولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل صحة الإعتقاد وآخرها قوله : ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ ، والستة التى بعدها تتعلق بالكمالات النفسية التى هى من قبيل معاشرة العباد وأولها ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ وآخرها : ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ ،والأربعة الأخيرة تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل تهذيب النفس وأولها : ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ وآخرها : ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ولعمرى من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان ونال أقصى مراتب الإيقان [1].

وفى سورة الحجرات رأينا قول الله -تعالى- : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

فهنا نجد صفتين : الإيمان والجهاد، والإيمان بالله ورسوله إيمانًا جازمًا لا ارتياب فيه ولا شك ولا شبهة، والجهاد بالمال والنفس جهادًا مبرأ من كل هوى، جهادًا خالصًا لله وفى سبيله ومن أجل إعلاء كلمته لا لمغنم ولا

(١) روح المعانى : للألوسى المجلد الأول جـ ٢ ص ٤٨.

لسمعة ولا حمية وقومية وعنصرية ولا تحت أى راية من الرايات أو شعار من الشعارات إلا راية «لا إله إلا الله» وشعار «الجهاد فى سبيل الله».

وقد نزلت هذه الآية الكريمة فى معرض الرد على الأعراب من بنى أسد الذين ادَّعوا الإيمان دون أن يحققوه بالأعمال، فإنما الإيمان قول وعمل، فبين الله لهم الحق وأوضح لهم الطريق قال - تعالى- : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾.

وقد روى الزهرى عن عامر بن سعد عن أبيه قال : أعطى النبى ﷺ رجالا ولم يُعط رجلا منهم شيئا، فقال سعد : يا رسول الله، أعطيت فلانًا وفلانًا ولم تعط فلانًا شيئًا وهو مؤمن فقال النبى ﷺ «أو مسلم» ؟؟ حتى أعادها سعد ثلاثًا والنبى ﷺ يقول : «أو مسلم» ؟ ثم قال النبى ﷺ «إنى أعطى رجالا وأدع من هو أحب إلىَّ منهم لاأعطيه شيئًا مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم» (١).

وقال ابن زيد فى قوله : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ﴾ . . قال : لم يصدقوا إيمانهم بأعمالهم، فرد الله عليهم ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ وأخبرهم أن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون، صدقوا إيمانهم بأعمالهم، فمن قال منهم : أنا مؤمن فقد صدق ، قال وأما من انتحل الإيمان بالكلام ولم يعمل، فقد كذب وليس بصادق (٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم.

(٢) جامع البيان : لابن جرير الطبرى م ١١ جـ ٢٦ ص ١٤١.

فهمـا إذن صفتان : إيمان جازم بالله ورسـوله، وجهاد بالمال والنفس فى سبـيل الله، وبهاتين الصـفتين وتلكم الخـصلتين يتحـقق للعبـد كل أوصاف الخير، ويسمو إلى أوج الكمال، ويستحق أن يشار إليه باسم الإشارة «أولئك» دلالة على علو منزلته وسـمو مرتبته، وأن يقـال فيه ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ فكأن الصدق كله قد انحصر فيهم ومن لم يكن على منوالهم فليس بصادق، فمن ارتاب فى شئ من مقتضيات الإيمان، فهو منافق دَعِيٌّ مهما قال، ومهما ادَّعى بأنه مؤمن، ومن آمن ونكص على عقبيه، وتأخر عن دواعى الجهاد فى سبيل الله ولم يبذل من ذات نفسه ومن طيب ماله لله وفى سبيله فهو كاذب، فالصدق كل الصدق فيمن آمن إيمانًا صادقًا وعمل عملا صالحًا، فليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى، إنما الإيمان ما وقر فى القلب، وصدَّقه العمل. .

وفى سورة الحـشر بعض ملامح هؤلاء الصادقين حـيث يقول ربنا فى صفـة المهاجرين من أصحـاب رسول الله ﷺ: ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ (١).

فهنا - أيضـاً - صفتان قريبـتان من الصفات الأولى المـذكورة فى سورة البقرة والحجرات فهؤلاء المـهاجرون -رضوان الله عليهم- آمنوا بالله ورسوله إيمانا لاتزحـزحه العواصف الـهوج، ولا تؤثر فيـه وطأة الظالمين من جـبابرة الكفـر، إنهم بالإيمان عاشـوا، وعلى الإيمان ثبتـوا، وإلى الإيمان ركنوا، وبه تعلقوا، فتحملوا فى سبيل ذلك الإيذاء كل الإيذاء : لقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم، أخـرجهم الطغـاة من بلدهم الحبيب مكة المـكرمة فتـركوا ديارهم وأموالهم وخرجوا ليس لهم من حطام الدنيا شئ لا يريدون بهذا كله إلا وجه الله والدار الآخرة. روى ابن سعد عن سعيد بن المسيب قال : أقبل صهيب مهاجرًا نحو المدينة واتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته وانتشل ما فى كنانته

(١) الحشر ٥٩/٨.

ثم قال : يا معشر قريش لقد علمتم أنى من أرماكم رجلا، وايم الله لا تصلون إلىَّ حتى أرمى بكل سهم معى فى كنانتى، ثم أضربكم بسيفى ما بقى فى يدى منه شئ، فافعلوا ما شئتم، فإن شئتم دللتكم على مالى وخليتم سبيلى قالوا: نعم، ففعل، فلما قدم على النبى ﷺ قال : ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع قال: ونزلت : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١).

وأمثال صهيب كثير بل كل أصحاب رسول الله ﷺ كانوا على هذا المنهج، لم يبالوا فى سبيل ربهم دارًا ولا مالا ولا أهلا، لقد عاشوا للهدف الأسمى، لنصرة الله ورسوله، فخاضوا غمار الموت فى بسالة وشجاعة وثبتوا فى مواطن الهلاك، وأغلى أمانيهم أن يفوزوا بالشهادة، وأن تسيل دماؤهم فى ساحات المعارك.. وليس هناك أصدق ممن باع دنياه، وتجرد لمولاه، وليس هناك بعد الهجرة وما فرضته على أصحابها من تبعات ومشقات صدق فى الإيمان، وليس هناك صدق بعد الأهوال التى تعرض لها أصحاب رسول الله ﷺ فثبتوا لها، ولذلك قال -تعالى- فى ختام الآية : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ إشارة إلى سمو منزلتهم ودلالة على أن الصدق كل الصدق فيهم فرضى الله عنهم أجمعين.

وفى سورة الحديد يقول - سبحانه - : ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

ففى هذا بيان قرآنى يوضح لنا من هم الصادقون : إنهم المؤمنون إيمانا راسخًا ثابتًا بالله ورسله، والإيمانُ إن استقر فى القلب أثمر ثماره وآتى أكله :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ص ٢٢٨.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (١).

فالإيمان بالله ورسله يقتضى الإيمان بالملائكة الكرام والكتب المنزلة واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، ويقتضى تحليل ما أحلَّ الله وتحريم ما حرَّم، ويدفع إلى تلبية أوامر الله عز وجل، تصديقًا وإيمانًا ويقينًا، ومن هذا حاله فهو صِدِّيق أى مبالغ فى الصدق ملتزم به، ولهذا وجدنا هذه الصفة : صفة الإيمان بالله ورسله تأتى بين الحديث عن المصدقين والمصدقات وما أعد الله لهم من جزيل الثواب ، والحديث عن الشهداء وما أعد الله لهم من عظيم المنزلة، والإيمان بين الحديثين؛ لأنه فى الواقع مركز الدائرة فهو الذى دفع المتصدقين بأموالهم ليجودوا بها عن طيب نفس خالصة لله، والإيمان هو الذى حرك أصحابه، وجعلهم يجودون بأنفسهم فى سبيل الله.

أخرج ابن حبان فى صحيحه عن عمرو بن مرة الجهنى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان وقمته فممن أنا ؟ قال : «من الصديقين والشهداء» (٢).

ولا عجب فى ذلك فقد قال تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (٣).

(١) سورة إبراهيم ١٤ / ٢٤ ، ٢٥.
(٢) فتح القدير للشوكانى جـ ٥ / ١٧٤.
(٣) سورة النساء ٤ / ٦٩ ، ٧٠.

٣- جزاء الصادقين :-

لقد جاء القرآن والسنة يرغبان فى الصدق ترغيبًا، تشعر وأنت تقرأ ما جاء فيهما بشوق وحنين إلى تلك المنازل العالية، وهذه المكانة الباسقة التى أعدها الله لعباده الصادقين.. ولا غرو فتلك منازل الأنبياء، والشهداء، والصالحين، وما أعظمها من منازل، وما أعلاها من مكانة..

وأول جزاء للصادقين: هو ما يحصلون عليه فى الدنيا وذلك يتجلى فى أمرين تُدَقّ أعناق أهل الأرض من دونهما، ولا يحصلون على واحد منهما، إذ لا يحصل على ذلك إلا الصادقون، وأول الأمرين : هو طمأنينة النفس، وهدوء الخاطر، وإصلاح البال، والشعور بالرضا والسكينة، وفى ذلك قول رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة» (١) فهذا توجيه كريم من الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - بأن يبتعد المؤمن عن مواطن الشك والشبهات، وما فيه ريبة وأن يلتزم جانب الصدق والصراحة فى حياته ويبين لنا ﷺ بأن الصدق طمأنينة وأن الكذب ريبة، وما أحوج الإنسانية إلى هذه الطمأنينة فإنها حين فقدت أمنها شقيت وتعبت وتعذبت.

أما الأمر الثانى الذى جعله الله للصادقين فى الدنيا فهو البركة : البركة فى الرزق، والبركة فى العمر، والبركة فى الأبناء، والبركة فى الحياة وهذا ما يرشد إليه قول رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى خالد: حكيم بن حزام -رضى الله عنه- حيث قال : قال رسول الله ﷺ : «البَيعّان بالخيار مالم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكَذَبا مُحقتْ بركة بَيْعهما» (٢).

---

(١) رواه الترمذى حديث رقم ٦٣٧، فى أبواب صفة القيامة جـ ٤ ص ٧٧ ط الثالثة بمطبعة دار الفكر ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م وإسناده - كما يقول الترمذى - صحيح، ورواه أحمد وغيره.

(٢) متفق عليه.

فالله يبارك للبائع فيما أخذ من مال ويبارك للمشترى فيما أخذ من صفقة، وليست البركة كلمة هائمة لا حقيقة لها، وليست من نسج الخيال، إنما هى واقع ملموس مشهود، يراه الفرد فى واقعه وتعرفه الأمم فى حياتها : حين يشيع الصدق والإخلاص ترى نماء فى كل ما بين يديك، وإشراقًا فى كل ما حولك، وحين ينتشر الكذب، ويغيض معين الإخلاص يشعر الناس بوطأة الحياة وضياع الأعمار، وذهاب الخير من نفوسهم ومما حولهم، وصدق الله حيث قال : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [1].

وإذا كان هذا هو جزاء الصادقين فى الدنيا : طمأنينة فى القلب، وبركة فى الرزق فإن جزاءهم عند الله فى الآخرة أعظم، إنهم بالصدق قد وضعوا أقدامهم على طريق الجنة وهم بإذن الله واصلون إليها، وقد ذكرنا من قبل الحديث الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما وفيه وصية رسول الله ﷺ بالصدق وأنه بالصدق يهتدى الإنسان المؤمن لكل وجوه الخير ومن اهتدى إلى وجوه الخير كان مآله إلى الجنة يقول ﷺ : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى الى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

وقد جاء القرآن يبشر الصادقين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلنتدبر فى كتاب الله لنرى هذا الثواب العظيم بشرى للصادقين المخلصين، إننا نقرأ فى سورة الأحزاب فى أربعة مواضع بعض ما

(١) سورة الأعراف ٨ / ٩٩.

جاء فى هذا الباب نقرأ قول الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (1).

ففى هاتين الآيتين يبين الله تعالى أنه أخذ الميثاق على النبيين - عليهم السلام - أن يؤدوا الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضًا قال - تعالى- : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (2).

وإنما أخذ الله الميثاق على النبيين حتى يؤدوا رسالة الله فلا تبقى حجة لمعتذر كما قال - تعالى- : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (3).

وفى موقف الحساب والسؤال : يسأل الله الصادقين عن صدقهم ويسأل الكافرين عما أجابوا به أنبياء الله، ليكون سؤال الصادقين تكريمًا لهم على رؤوس الأشهاد وسؤال الكافرين تبكيتا لهم، وخزيا وندامة فى هذا الموقف الرهيب، وكم فى هذا العطاء للصادقين من عزة وكرامة وسعادة، وكم فى هذا التبكيت والتقريع للكافرين المكذبين من خزى وفضيحة وندامة..

وبعد أن ذكر الله ما كان من فضله على المؤمنين فى غزوة الأحزاب وما كان فى هذه الغزوة من مواقف لأهل الإيمان وأهل النفاق قال : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا

(1) سورة الأحزاب ٣٣ / ٧ ، ٨.
(2) سورة الشورى ٤٢ / ١٣.
(3) سورة النساء ٤ / ١٦٥.

إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [1].

ففى هذه الآيات بيان لحال المؤمنين الصادقين من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قالوا - حين رأوا الخطب قد أحاط بهم والكرب قد نزل بساحتهم - هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وما زادهم هذا البلاء الذى تمثل فى الأحزاب من خارج المدينة ، واليهود من داخلها إلا إيمانًا بالله ورسوله وتصديقًا بوعده. ثم بين لنا ربنا مدى صدق هؤلاء فى طلب ما عند الله وأنهم فريقان : فريق فاز بالشهادة كحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر وغيرهم وفريق يحيا على هذا الأمل : أمل الفوز بتلك الشهادة، وما بدلوا ما عاهدوا الله عليه تبديلا، أدنى تبديل، إنما ثبتوا على عهدهم وعاشوا لغاية سامية نبيلة لا كما يحيا كثير من الناس لمتع رخيصة، وغايات هابطة ودنيا يصيبونها، والقيامة وأرض المحشر وساعة الحساب هى الموعد : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فالله يجزى الصادقين أعظم الجزاء بصدقهم وإخلاصهم وحسن بلائهم ويعذب المنافقين بنفاقهم ومكرهم وخداعهم - إن شاء، أو يتوب عليهم فى الدنيا إن تابوا فكانوا من الصادقين.

وجزاء الصادقين هنا مجمل لتذهب النفس فيه كل مذهب. وحسبه أن المجازى به هو الله، والله: هو الرب الكريم الذى يعطى على العمل القليل الأجر الجزيل . .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ / ٢٢ - ٢٤.

ومرة أخرى تعود سورةُ الأحزاب فتذكر لنا جزاء الصادقين ولكنها فى هذه المرة تضع هذه الصفة بين صفات كلها صفات عظمة، وسمو ورفعة وخلق كريم، وذلك حيث تقول : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (١).

فهذه عشر صفات فى آية واحدة : الإسلام، والإيمان، والقنوت (وهو العبودية والطاعة لله وحده) والصدق، والصبر، والخشوع (وهو التواضع والخوف من الله) والتصدق، والصيام : فرضًا ونفلا ، وحفظ الفروج عن الحرام، والإكثار من ذكر الله، مَنْ جمع هذه الصفات العشر، فلينتظر جزاءه الأوفى، ومنزلته العظمى : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾، وكم فى الإعداد من قِبلَ الله من رعاية وعناية بهؤلاء الكرام من البشر، وكم فى هذا الوعد من بشارة لهم، وماذا ينتظرون بعد أن يمحو الله عنهم كل خطيئة ، ويغفر لهم كل ذنب ؟ بل ولهم علاوة على ذلك أجر عظيم، وكلمة الأجر هنا تحمل التعظيم، فإذا وصف هذا الأجر بأنه عظيم فكأنه قال: هذا أجر لا يقادر قدره، ولا يعرف أحد مداه، إنه قد بلغ النهاية فى العِظَم والعظمة..

وأخيرا نقرأ فى نهاية سورة الأحزاب قول الله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (٢) والقول السديد هو القول الصائب

---

(١) الأحزاب ٣٣ / ٣٥.
(٢) الأحزاب ٣٣ / ٧٠ - ٧١.

الذى لا يلتوى، كالسهم يصيب الهدف فى وضوح، ولذلك قالوا: بأن القول السديد هو الذى يوافق ظاهره باطنه، وهذا هو الصدق بعينه ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١).

والجزاء هنا: إصلاح الأعمال: بتسديدها، وتوفيقها، ومغفرة الذنوب، والفوز العظيم فى الدنيا والآخرة.

ومن جزاء الصادقين ما نقرؤه فى سورة المائدة حيث يقول -سبحانه-: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢).

والآية تأتى فى معرض التقريع لمن عبدوا عيسى من دون الله واتخذوه إلهًا، فكذَبوا على الله، وكذَبوا على عيسى - عليه السلام - ولم يصدقوا برسالة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ (٣).

فهؤلاء العابدون لعيسى لم يكونوا صادقين، إنما هم عبدُوا الشيطان من دون الله، ولم يستجيبوا لداعى الحق الذى دعاهم إلى العبودية الحقة الصادقة

---

(١) سورة التوبة ٩ / ١١٩.

(٢) سورة المائدة ٥ / ١١٩.

(٣) سورة المائدة ٥ / ١١٦.

لله رب العالمين، ولذلك قال ابن عباس -رضى الله عنهما- فى معنى الآية : «هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم» أما هؤلاء فليسوا بصادقين فى عبوديتهم إنما قالوا : بأن الله ثالث ثلاثة وقالوا : بأن الله هو المسيح عيسى بن مريم، ففى هذا اليوم : يوم الحساب لا ينفعهم إيمانهم، ولا ينجيهم دينهم، ولا ينقذهم من عذاب الله تأليههم لعيسى - عليه السلام - إنما ينفع فى هذا اليوم الصدقُ والتوحيد الخالص لله وحده.

فلننظر فى جزاء الصادقين وهو ما نتحدث عنه؛ ليتضح لنا عِظَمُ هذا الجزاء يقول تعالى : ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فأنت ترى أن الله قد منحهم جنات وليست جنة واحدة وفى حديث البخارى عن أنس قال : أصيب حارثة يوم بدر - وهو غلام - فجاءت أمه إلى النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة منى، فإن يك فى الجنة أصبر، وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع، فقال : «ويحك أوَ جنَة واحدة هى؟؟ إنها جنان كثيرة، وإنه لفى جنة الفردوس» ومن طريق قتادة : «وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى..» [1] إنها جنان كثيرة وفى كل جنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولو أن المقام يتسع لذكرت لك من صفة الجنة ما ينشرح به صدرك ويتعلق به فؤادك، ولكن حسبك كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ فاقرأ فيهما أو استمع لمن يقرأ لك فيهما إن لم تكن قادرًا على القراءة وسوف ترى أن نعيم الدنيا كله لا يعدل لحظة من لحظات الحياة فى ظلال الجنة ونعيمها واقرأ إن شئت قول الله - تعالى- : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ

(١) فتح البارى باب صفة الجنة والنار من كتاب الرقاق، وباب من أتاه سهم غرب/ فى كتاب الجهاد.

مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١) وأمثال ذلك من الآيات، واقرأ ماروواه أبو هريرة فى صفة الجنة حيث قال: قلت يا رسول الله، الجنة مابناؤها ؟ قال : «لبنة من فضة، ولبنة من ذهب، وملاطها المسك الأذفر (أى الطيب الرائحة) وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، ومن يدخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت، ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم» (٢).

وفى حديث البخارى فى وصف نساء أهل الجنة : «ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض، لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحا، ولنصيفها - يعنى الخمار - خير من الدنيا وما فيها».

وفى حديث ابن عباس : «ولو أخرجت نصيفها (أى: خمارها) لكانت الشمس عند حسنها مثل الفتيلة من الشمس لا ضوء لها ولو اطلعت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء والأرض، ولو أخرجت كفها لافتتن الخلائق بحسنها» (٣).

ونعود للآية الكريمة لنرى وصف الله للجنات التى وعد بها الصادقون بأنها تجرى من تحتها الأنهار، فهى أنهار جارية فى الجنة، وقوله من تحتها يشير إلى منازل أهل الجنة العالية وأنهم فى قصور كما قال تعالى : ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾(٤).

وفى الحديث المتفق عليه عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ : أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون

(١) سورة المطففين ٨٣ / ٢٢ - ٢٨.
(٢) جامع الأصول فى أحاديث الرسول جـ ١٠ ص ٤٩٧ حديث رقم ٨٠٢٨.
(٣) فتح البارى جـ ١١ ص ٤١٨ ، ٤٤٢ كتاب الرقائق باب صفة الجنة والنار.
(٤) سورة الزمر ٣٩ / ٢٠.

الكوكب الدرى الغابر فى الأفق (أى الكوكب المضيئ الذاهب بعيدًا فى السماء) من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : «بلى، والذى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (١).

وإذا كانت تلك الأنهار تجرى من تحت تلك القصور فهى بلا شك -أيضا- تجرى بين الأشجار، وهى أنهار وليست نهرًا واحدًا قال تعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (٢).

وإذا كان نعيم الدنيا ينغصه الفناء والزوال لأنه إما أن يزول عنك أو تزول عنه، إما أن تفارقه أو يفارقك، فإن نعيم الآخرة باق خالد لا يزول ولا يفنى ولا يفنى أصحابه فهو إذن لا يزول عنهم، وهم لا يزولون عنه، ولذلك قال تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ - روى مسلم بسنده عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبدًا، وأن لكم أن تَشِبُّوا (أى تصيروا شبابًا) فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا» (٣) وفى رواية «فلا تبتئسوا» - فذلك قوله - عز وجل - : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة محمد ٤٧ / ١٥.

(٣) أخرجه مسلم فى صفة أهل الجنة باب فى دوام نعيم أهل الجنة، والترمذى فى التفسير باب: ومن سورة الزمر.

وأعظم من ذلك كله رضوان الله على أهل الجنة، وهذا ما تقرؤه فى قوله تعالى فى الآية التى معنا : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ - روى البخارى ومسلم، والترمذى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول: هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شئ أفضل ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا» (1).

فهل بعد هذا الذى فاز به الصادقون من ثواب الله فوز ؟ ولذلك قال -سبحانه-: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

وقريب من هذه الآية ما جاء فى سورة آل عمران بعد أن بين سبحانه زينة الدنيا وما فيها من متع وشهوات قال : ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ (2) فقد جعل الصدق من الصفات الخمس التى اتصف بها المتقون الذين استحقوا هذا الثواب العظيم.

٤- الكذب وأثره فى حياة الفرد والجماعة :

إذا كُنَّا قد عرفنا فيما سبق ما هو الصدق، ومن هو الصادق، وما جزاء الصادقين؛ فإننا الآن بصدد بيان الوجه المقابل للصدق ألا وهو الكذب، وذلك

(1) رواه البخارى فى الرقاق / باب صفة الجنة والنار، وفى التوحيد / باب كلام الرب مع أهل الجنة ، ومسلم فى صفة الجنة باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، والترمذى فى صفة الجنة باب رقم ١٨ .

(2) سورة آل عمران ٣ / ١٥ - ١٧ .

لما للكذب من آثار خطيرة فى حياة الأفراد والجماعات، فما هو الكذب ؟ ومن هو الكاذب ؟ وما هو الجزاء الذى أعده الله للكاذبين وما هى الآثار التى يتركها الكذب فى حياة الفرد والأمة ؟.

أما الكذب : فإن كتب اللغة تقول فى بيانه : كَذَبَ كِذْبا وكَذِبًا ، وكِذَابًا. أخبر عن الشئ بخلاف ما هو عليه فى الواقع، وكذب عليه : أخبر عنه بما لم يكن فيه،و كذب الظنُّ والسمعُ والعينُ والرأىُ : أخطأ، وكذب الشئْ: لم يتحقق ما ينبىء عنه وما يرجى منه، وكذب فلان فلانًا أخبره بالكذب، ويقال كذبه الحديث، ويقال : كذَبتْ فلانًا نفسُه : حدثته بالأمانى البعيدة، ويقال : كذب نفسه وكذبته عينه : أرته ما لا حقيقة له فهو كاذب وأكذبه : وجده كاذبا، وبيَّن كَذِبَه، وحمله على الكذب، وكذَّبَ بالأمر تكذيبًا وكذابًا : أنكره وفى التنزيل العزيز :﴿ **وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ** ﴾. ومنه : ﴿ **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا** ﴾ وكذب عن أمر أراده : أحجم ويقال : حمل عليه فما كذب : ما انثنى وما جبن، ويقال : ما كذب أن فعل كذا : ما لبث وما أبطأ، والأكذوبة : الخبر الكاذب جمعه أكاذيب، والكذب : خلاف الصدق، والكذبة: المرة من الكذب، والكَذَّاب كثير الكذب، وجوهر كذاب: زائف والكذوب : الكذاب، وفى المثل، إن كنت كذوبًا فكن ذكوراً [1].

وفى تاج العروس : الكذب : هو الإخبار عن الشئ بخلاف ما هو، سواء فيه العمد والخطأ إذ لا واسطة بين الصدق، والكذب على ما قرره أهل السنة والبيانيون [2].

وإذا كنا قد عرفنا بأن الكلام الصادق لابد فيه من شرطين : الأول :

(١) المعجم الوسيط، للدكتور إبراهيم أنيس وآخرين/ الطبعة الثانية بدار المعارف بمصر جـ ٢ ص ٧٨٠/ ٧٨١.

(٢) تاج العروس : للزبيدى المجلد الأول ص ٤٥٣.

مطابقته للواقع، والثانى : مطابقته لما فى النفس ، فإن الكلام الكاذب هو الذى لم يتوفر له الشرطان بمعنى أنه لو اختل شرط منهما لم يكن الكلام صدقا إنما هو الكذب، فإذا لم يطابق الواقع أو طابق الواقع، ولكنه لم يطابق ما فى النفس فهو كذب كما كان من حال المنافقين الذين كانوا يشهدون شهادة الحق ويعلنون بين يدى رسول الله أنه رسول الله، ومع ذلك فلم يعتد بقولهم رغم مطابقته للواقع لأنه لم يطابق ما فى النفس قال تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١) .

وإذن فنحن فى الكذب أمام صنفين من الناس : صنف يقول قولا لا حقيقة له من الواقع، وصنف يقول قولا يصدقه الواقع ولكنه لا يعبر عما فى النفس ولا يترجم عما فى القلب كما هو حال المنافقين، وربما جمع هذا الصنف الثانى بين الأمرين وهم بذلك يجمعون الكذب من أطرافه كما فى قولهم : آمنا. فهذا كذب لا حقيقة له، وهو كذلك لا يعبر عما فى نفوسهم من الكفر والجحود والعداء لله، ولرسوله، وللمؤمنين، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٢) .

وقال فى منافقى أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة المنافقون ٦٣ / ١ .

(٢) سورة البقرة ٢ / ٨ - ١٠ .

(٣) سورة المائدة ٥ / ٦١ .

والكذب والنفاق صنوان وفى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «آية المنافق ثلاث (أى علامة نفاقه) إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان» زاد فى رواية لمسلم : «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم». وللبخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال : «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر».

وخلف الموعد لون من الكذب، وخيانة الأمانة والغدر والفجور كلها أبواب من الكذب وهذا من صفات المنافقين ومن العلامات البارزة فى حياتهم والتى يمكن بها التعرف عليهم بسهولة ويسر.

وفى القرآن : ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ (١).

والآيات فى بيان خلق المنافقين كثيرة أفردها الباحثون بالدراسة وأعد فيها الدارسون رسائل علمية، وحسبنا أن نعرف بأن الكذب والنفاق أخوان وأن من أوائل صفات المنافقين ومن أبرز ما فى حياتهم صفة الكذب، نجَّانا الله، ونجَّى أمة الإسلام من كذب المنافقين وفجورهم وغدرهم وخيانتهم.

وإذا كان النفاق يعنى الالتواء والإخبار بغير ما فى النفس طلبًا لدنيا،

(١) سورة التوبة ٩ / ٧٤ - ٧٧.

وكسبًا لحظوة وحقنًا لدماء، فإن الكفر لا يبالى بما يصنع، وإن وافق قول الكافر ما فى نفسه وعبر عن عقيدة لا يريد أن يتحول عنها إلا أنه مناقض للواقع ليس له أساس من الصحة، ومن هنا كان الكذب - أيضا - ملازمًا للكفر، وكذب الكافر خطير لأنه كذب على الله، وادعاء للنبوة، أو الولد، أو الشريك من ملائكة وأنبياء وغيرهما مع الله ، قال تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (1) وقال : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(2) . وهم حين كذبوا على الله كذبوا بآياته، وكذبوا بلقائه، وكذبوا المرسلين، وكذَبوا على أنفسهم فمنوها الأمانى الباطلة وانساقوا وراء الآمال العاطلة، وانصرفوا عن الحق والحقيقة وباءوا بالخسران المبين.

ولذلك لا يجتمع الكذب مع الإيمان روى الإمام مالك فى الموطأ بسنده عن صفوان بن سليم أنه قال : قيل لرسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جبانا ؟ فقال : «نعم» ، فقيل له ، أيكون المؤمن بخيلا فقال : «نعم»، فقيل له أيكون المؤمن كذابا ؟ فقال : «لا» (3).

وأخطر الكذب هو ما كان على رسول الله ﷺ روى البخارى ومسلم عن المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «إن كذبًا علىَّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار». .

وصدق رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- فإن الكذب عليه ليس كالكذب عَلى غيره لأن فى الكذب عليه تغييرًا للحقائق وخلطًا فى الدين،

(1) سورة الزمر ٣٩ / ٣٢.

(2) سورة الزمر ٣٩ / ٦٠.

(3) الموطأ للإمام مالك بن أنس ص ٨٤٢ تقديم فاروق سعد ط الأولى ١٩٧٩ م منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت.

وتزويرًا للحق، وتضييعًا للمعالم، فأقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته هدى ومنارة إرشاد وتشريع للأمة فمن كذب فى هذا فقد افترى إثما عظيمًا وكان عليه أن يتبوأ مقعده من النار، وقد ظن قوم وضعوا أحاديث فى الترغيب والترهيب أنهم خدموا هذا الدين وحثُّوا الناس على عمل الصالحات ونفروهم من المعاصى والمنكرات، وحين قيل لهم لقد قال رسول الله ﷺ : «من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» قالوا: نحن لم نكذب عليه وإنما كذبنا له، وهذا فهم خاطئ لأن الله أتم نعمته على المسلمين حين أكمل لهم دينهم ورضى لهم الإسلام دينًا فلم تبق هناك زيادة لمستزيد قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [1] فلا يجوز لأحد أن يزيد فى دين الله شيئًا كما لا يجوز له أن ينقص منه شيئًا، ومن فعل هذا فقد ضل ضلالا مبينًا وارتكب إثمًا عظيمًا.

٥- قضاء الإسلام على الكذب

ليس للكذب مكان فى مجتمع الإسلام، ولذلك أغلق ديننا كل باب تهب منه رائحة الكذب، وتوعد الكاذب بأقصى وأقسى ما يمكن من عقوبة رادعة

ففى مجال الحكم والسلطان : ترى الحاكم العادل وما له من أثر فى إصلاح الرعية وما أعد الله له من ثواب، ولكن إن غش أمته، وكذب والتوى كان خطرًا عظيمًا تهلك به الأمة، ولذلك كان على كل صاحب حكم أو ولاية أن ينصح لأمته وأن يأخذ بيدها بعيدًا عن مواقع التهلكة وأن يكون كالراعى الشفوق يسوسها بالحكمة ويحرص على ما ينفعها. عن أبى يعلى معقل بن يسار -رضى الله عنه- قال : سمعت رسول الله

(١) سورة المائدة ٥ / ٣.

ﷺ يقول : «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» (١).

وروى مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة . .» (٢).

ويا لها من فضيحة على الملأ : إذ يرى أهلُ الموقف لواء مرفوعا يشير إلى صاحبه وكأنه يقول : هذا هو الغادر ، وأعظم هذه الأعلام وتلك الألوية هو لواء أمير العامة، والجماعة، والأمة التى غدر بها وكذب عليها، وغرر بها فكان له أعظم الضرر على أمته، وقد عرفنا أن الغدر والكذب والخيانة من أخلاق المنافقين.

وفى مجال الحقوق العامة : نرى تنفير الإسلام من شهادة الزور واليمين الكاذبة، لأن شهادة الزور تضيع الحقوق وتقضى على الحقيقة، وتقتل العدل، واليمين الكاذبة يقتطع المرء بها حق امرئ مسلم ظلمًا وعدوانا، وبهذه اليمين تُهدرُ الحقوق ويضيع الضعاف من الناس، وتذهب الأخوة والرحمة والمودة وتقوم العداوة والبغضاء وتتفكك أواصر المجتمع إلى غير ذلك مما يطول ذكره : روى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى بكرة -رضى الله عنه- قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» - ثلاثا - قلنا -: بلى، يا رسول الله، قال : «الإشراك بالله وعقوق الوالدين ألا ، وشهادة الزور، وقول الزور، وكان متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» (٣).

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم فى كتاب الجهاد : باب تحريم الغدر.

(٣) رواه البخارى فى الشهادات باب : ما قيل فى شهادة الزور، ومسلم فى الأيمان باب : بيان الكبائر وأكبرها، والترمذى فى الشهادات : باب ما جاء فى شهادة الزور.

وهذا من شدة غضبه - صلوات الله وسلامه عليه - على من فعل هذا الفعل اللئيم حتى تمنى الصحابة - رضوان الله عليهم- أن يسكت ﷺ إشفاقًا عليه مما اعتراه من آثار ثورته على من شهد شهادة الزور، أو قال قول الزور.

وروى البخارى، والترمذى، والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضى الله عنهما- أن النبى ﷺ قال : «الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس» وفى رواية أن أعرابيًا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر ؟ قال : «الإشراك بالله»، قال ثم ماذا ؟ قال «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس ؟ قال : «الذى يقتطع مال امرئ مسلم يعنى بيمين هو فيها كاذب» (١).

وإنما سميت باليمين الغموس؛ لأنها تغمس صاحبها فى الإثم ثم تغمسه فى النار قال تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** (٢).

وقد نزلت هذه الآية فى الرجل الذى يأخذ حق الغير فيطَالبُ بالحلف فيحلف ليقتطع أموال الغير بالباطل.

روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ من «حلف على يمين صبر - أى: يمين دفعه إليها صاحب الحق يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان» (٣).

---

(١) رواه البخارى فى الأيمان : باب اليمين الغموس، والترمذى فى التفسير : باب : ومن سورة النساء، والنسائى فى تحريم الدم : باب الكبائر.

(٢) سورة آل عمران ٣ / ٧٧.

(٣) رواه البخارى فى كتاب الأيمان باب قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾**، ورواه الترمذى فى التفسير باب : ومن سورة النساء وإسناده حسن.

وعن الترمذى عن عبد الله بن أنيس الجهنى -رضى الله عنه- قال : ذكر لنا رسول الله ﷺ الكبائر فقال : «وما حلف حالف بالله يمين صبر فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا جعلت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة» (١).

وإذا كان الإسلام قد حافظ على حقوق العباد إلى هذا الحد فإنه فى مجال البيع والشراء - وعليهما تقوم حياة الناس - أغلق باب الكذب والتدليس، والغش إغلاقًا محكمًا، وبين أن التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء، وحذر من الكذب كل التحذير روى الترمذى عن رفاعة بن رافع -رضى الله عنه- قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المصلى فرأى الناس يتبايعون فقال : «يا معشر التجار فاستجابوا ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه فقال : إن التجار يبعثون يوم القيامة فُجَّارًا إلا من اتقى الله وبر وصدق» وعند الإمام أحمد : «إن التجار هم الفجار» قالوا: يا رسول الله، قد أحل الله البيع ؟ قال : «بلى : ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدثون فيكذبون» (٢).

وقال : ﷺ «إياكم، وكثرة الحلف؛ فإنه ينفق ثم يمحق»، وفى رواية البخارى ومسلم عن أبى هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب» (٣) وقد ذكرنا من قبل قوله ﷺ «البَيّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقًا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما».

وفى رواية للبخارى «فإن صدق البيعان وبيَّنا بورك لهما فى بيعهما وإن

---

(١) أخرجهُ الترمذى فى البيوع : باب ما جاء فى التجار (٤) وأخرجه مسلم فى المساقاة باب النهى عن الحلف فى البيع، والنسائى فى البيوع باب : المنفق سلعته بالحلف الكاذب.

(٢) البخارى فى البيوع : باب يمحق الله الربا ويربى الصدقات، ومسلم فى المساقاة.

(٣) أخرجه الجماعة إلا الموطأ.

كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحًا ما ، ويمحقا بركة بيعهما ، اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب» [1].

وانظر معى إلى ما قاله رسول الله ﷺ لمن غش فى بيعه روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال : «ما هذا يا صاحب الطعام» ؟ قال: أصابته السماء (أى المطر) يا رسول الله، قال : «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غشنا فليس منا».

بل ويبالغ الإسلام فى إغلاق باب الكذب إلى أبعد الحدود، فهذا الذى يرى فى منامه رؤيًا لا يجوز له أن يكذب، وهو يروى ما رأى : روى البخارى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ قال : «من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل» وروى البخارى عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال : قال النبى ﷺ : «أفرى الفرى (أى أكذب الكذب) أن يُرِىَ الرجلُ عينيه ما لم تريا»، ومعناه أن يقول: إنى رأيت فى منامى كذا وكذا وهو لم ير ذلك».

وقد يحلو لبعض الناس أن يضُحِك الآخرين بشئ يختلقه ويكذب فيه، والويل لمن فعل ذلك، روى أبو داود والترمذى عن بهز بن حكيم رحمه الله عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ويل للذى يحدث بالحديث ليضُحِك به القوم فيكذب، ويل له ، ويل له».

وهذه صورة أخرى من تلك الصور التى قد يتساهل فيها بعض الناس، ذلك أن كثيرا من الناس يُظهرُ من حاله أكثر من الحقيقة، وربما ادَّعى لنفسه أشياء ليست له وليست فيه بأن يدعى إنسان لنفسه صلاحًا وعلمًا ودينًا وليس له من

(١) أخرجه الجماعة إلا الموطأ.

ذلك نصيب، وهذا إن كان فيه فهو الرياء الذى يحبط ثواب العمل. وكأن تدعى المرأة أمام ضـرتها أنهـا حصلت من زوجهـا على كذا وكذا وأن لـهـا من الحظوة والمكانة عنده ما لـيس لغيرها، وهذا كله كـذب حرَّمه الإسـلام، روى النسائى ومسلم عن عائـشة -رضى الله عنها- أن امرأة قالـت : يا رسول الله، أقول إن زوجى أعطانى لما لم يعط فقال : «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور» [1].

وعن أسماء بنت أبى بكر -رضى الله عنهـا- أن أمرأة قالت : يا رسول الله، إن لى ضرة فهل علىَّ جناح إن تشبـعت من زوجى غير الذى يعطينى ؟ فقال: النبى ﷺ «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور» [2].

والمتـشبع: هو الذى يظهـر الشبع وليس به شـبع، وقال أبـو عبـيد : المتشبع أى: المتزين بما ليس عنده يتكثر بذلك، ويتزين بالباطل كالمرأة تكون عند الرجل، ولها ضـرة فتدعى من الحظوة عند زوجها أكـثر مما عنده تريد بذلك غيظ ضرتها، وكذا هذا فى الرجال، قال : وأما قوله : كلابس ثوبى زور، فإنه الرجل يلبس الثياب المشبـهة لثياب الزهاد ويوهم أنه منهم ويظهر من التخشع والتقشف أكثر مما فى قـلبه منه، وقال أبو سعيد الضرير : المراد به أن شاهد الزور قد يستعير ثوبين يتجمل بهما ليوهم أنه مقبول الشهادة ، وإنما قال : كـلابس ثوبى زور للإشارة إلى أن كـذب المتحلى مـثنى : لأنه كذَب على نفسه بما لم يأخذ وعلـى غيره بما لم يعط، وكذلك شاهد الزور يظلم نفسه ويظلم المشـهود عليه [3] إنها الصراحـة وإنه الصدق الذى علمه الإسلام لأتباعه.

---

(١) رواه مسلم فى اللباس / باب النهى عن التزوير فى اللباس وغيره.

(٢) رواه البخارى فى النكاح باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضرة جـ ٩ ص ٣١٧ ومسلم : فى اللباس والزينة باب : النهى عن التزوير فى اللباس.

(٣) فتح البارى جـ ٩ ص ٣١٨.

وهذا لون آخر قد يبدو فى ظاهره وكأنَّ الكذب فيه لا ضرر منه ولا غبار عليه ذلك هو ما يَحدُثُ من الآباء، والأمهات فى إلقاء الأمانى بين يدى أبنائهم الصغار، رغبة فى إسكاتهم، ودفعا لإلحاحهم، وقد يكذب الأب وتكذب الأم ولا يبالى الواحد منهم بمثل ذلك، وما علما أن هذا سلوك سيئ فى التربية ومنهج خاطئ؛ لأنهما بذلك يربيان وليدهما على الكذب، ومثل هذا لا يرضى به ديننا العظيم : عن عبد الله بن عامر -رضى الله عنه- قال: دعتنى أمى يوما ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا فقالت : ها تعال أعطك، فقال لها رسول الله ﷺ «ما أردت أن تعطيه» ؟ قالت :. أردت أن أعطيه تمرًا فقال رسول الله ﷺ «أما إنك لو لم تعطه شيئًا كُتبتْ عليك كذبة» (١).

وهذه صورة أخرى نراها فى هؤلاء الذين يجلسون فى مجالس أصحاب السلطان والحكم والإمارة يكيلون لهم ألوانًا من المديح، والإطراء، ويذكرون لهم ما لا يذكر، وهم فى ذلك يكذبون كل الكذب، فى هؤلاء يروى البخارى بسنده عن محمد بن زيد أن ناسًا قالوا لجده عبد الله بن عمرو -رضى الله عنهما- : إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم ، قال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ (٢).

هذه صور من الحياة بل هذه مجالات الحياة كلها لم يترك الإسلام فيها مجالا ليدخل منه الكذب والكاذبون، وما ذلك إلا لما له من أثر سيئ فى حياة الفرد والجماعة فهو يُذهِبُ من النفس طمأنينتها، واستقرارها وهدوءها ويوقع الناس فى متاهات الباطل، وبه تضيع الحقوق وتتقطع العلاقات الإنسانية ويغيض معين الحب والإخاء، ولهذا جاء الإسلام بالتشديد والوعيد لمن

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب باب : التشديد فى الكذب، وأحمد فى المسند ٣/ ٤٤٧ ورجاله ثقات.
(٢) رواه البخارى.

كذب، ويكفينا فى هذا المقام أن نعرف أن من كذب على رسول الله ﷺ عليه أن يتبوأ مقعده من النار، وأن من كذب على الله فهو ظالم، بل ليس هناك أظلم منه قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (١).

ولهذا الذى كذب على الله سوء الجزاء كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٢).

وأن من كذب على الله لا يفلح فى الدنيا ولا فى الآخرة وله العذاب الأليم. قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٣).

ويقول -عز من قائل- : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٤).

وهؤلاء هم المنافقون الذين عرفنا أن أول صفة من صفاتهم أن الواحد منهم إذا حدَّث كذب، فهم يكذبون ويحلفون أنهم صادقون، ولكنهم لم

(١) سورة الزمر ٣٩ / ٣٣.

(٢) سورة الزمر ٣٩ / ٦٠.

(٣) سورة يونس ١٠ / ٦٩ ، ٧٠.

(٤) سورة المجادلة ٥٨ / ١٤ - ١٩.

يدركوا لجهلهم أن علام الغيوب مطلع عليهم وأنه أعد لهم الخلود فى العذاب المهين والخزى والندامة والخسران فى الدنيا والآخرة.

وفى سورة الزمر ما يدل على أن الله لا يهدى الكاذبين، ولا يرشدهم، ولا يأخذ بأيديهم، يقول -تعالى- : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (1). ويقول فى سورة غافر : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (2).

وحسب الكذابين أنهم ساروا فى طريق الباطل والإثم والفجور وهم لابد واصلون إلى النار إن لم يتداركوا حالهم قبل فوات الأوان، ويعلنوا توبتهم لله رب العالمين، وقد ذكرنا حديث رسول الله ﷺ ومنه : «وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا».

وهذا ما رواه البخاري بسنده عن سمرة بن جندب -رضى الله عنه- من حديث طويل، وفيه أنه ﷺ قص على أصحابه رؤيا وفيها صور من العذاب الرهيب للمذنبين أطلعه عليها جبريل وميكائيل ومنها : «فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه، قال : ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى» وقد بين له الملكان هذا فقالا : وأمَّا الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه،

---

(1) سورة الزمر ٣٩ / ٣.

(2) سورة غافر ٤ / ٢٨.

ومنخـره إلى قفاه، وعـينه إلى قفـاه، فإنه الرجـل يغدو من بيـته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق (١).

هذا هو الكذب وهؤلاء هم الكاذبون، وهذا بعض مـا جاء فى جزاء الكاذبين، ولم يبق للكذب باب إلا ما صـرح به نبىّ الإسلام - صلوات الله وسـلامه عليـه - فى أمور ثلاثة تلكم هى : الإصـلاح بين الناس، والحرب، وقـول الرجل لامرأته والمرأة لزوجـها ما يرضـيه، ويرضيـها، ويجمع القلوب على المحبة.

وفى الحديث عن أم كلثـوم بنت عقـبة -رضى الله عنها- قـالت : ما سـمعت رسـول الله ﷺ يرخص فى شئ من الكذب إلا فى ثلاث، كـان رسول الله ﷺ يقـول لا أعده كذبًا: الرجل يصلح بين الناس ويقـول قولا يريد به الإصلاح، والرجل يقول فى الحـرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها (٢).

وهذا فى الحقيقة لا يعد كذبًا كما قال المصطفى ﷺ

أسأل الله أن يجعلنا من عباده الصادقين الذين فازوا بجنات النعيم.

(١) فتح البارى كتاب التعبير - باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح جـ ١٢إلى ص ٤٣٨.
(٢) رواه البـخارى فى الصلـح باب : ليس الكاذب الذى يصلح بين الناس، ومـسلم فى البـر والصلة/ باب: تحريم الكذب وبيان المباح منه.

الفصل الثالث

الوفاء

١- منزلة الوفاء في الكتاب والسنة.

٢- أبواب من الوفاء.

٣- بواعث الوفاء بالعهد.

٤- حث الإسلام على الوفاء بالعهد.

الفصل الثالث

«الوفـــاء»

١- منزلة الوفاء فى الكتاب والسنة

«الوفاء» كلمة تذكر فتخالط الأحاسيس والمشاعر، وتلقى فى القلب سعادة وأفراحًا، وتنشر فى النفس طمأنينة وارتياحًا، وما ذلك إلا لأنها مطلب إنسانى، به تنتظم حياة بنى الإنسان، ويشعرون معه وبه بالرضا والأمان.

وقد جاء كتاب الله؛ ليرسى دعائم هذا المطلب الإنسانى، وجاءت السنة المشرفة مؤكدة، مقررة لهذا الأمل البشرى، حتى جعلته واقعًا مشهودًا فى حياة بنى الإنسان : واقعًا نظيفًا، سامى الهدف والغاية، كما هو سامى الأصل والمنطلق والقاعدة، إذ إن أصل الوفاء، ومنطلقه، وقاعدته إيمان وثيق بالله القوى القادر، المتصف بصفات الجلال والكمال، ولعل فى هذا ما يوضح الفرق بين وفاء ووفاء : وفاء أهل الإيمان، ووفاء أهل الكفر، فوفاء المؤمنين : ثابت راسخ، قائم على أسس متينة، لا يتغير بتغير الزمان والمكان، وهدفه: طاعة الله، ومرضاته، وطلب ثوابه، ووفاء الكافرين : لا أساس له، ولاثبات، ولا قرار ولا استقرار، وإن تظاهروا بمظهر الأوفياء، فإنَّما ذلك لمطلب دنيوى، ومطمع مادى ، وهدف حيوانى، لأنهم لا يريدون بما يفعلون الله، والدار الآخرة، كما هو شأن المؤمنين بربهم السائرين على هدى نبيهم ولهذا جاء الأمر بالوفاء بالعهد بعد النداء بصفة الإيمان فقال -تعالى- : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ (١) .. وجاء بعد إرساء قاعدة التوحيد، وذلك ما نقرؤه فى سورة الأنعام حيث يقول ربنا :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا

---

(١) سورة المائدة ٥ / ١.

تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴿١٥١﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ (١) ونقرؤه كذلك فى وصايا سورة الإسراء، إذ بعد أن قال -سبحانه- : ﴿لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا﴾ بدأ يوصى المؤمنين بتلك الوصايا الخالدة ، إلى أن قال : ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾ (٢).

وفى مقدمة هذه العهود التى يجب الوفاء بها : عهد الله الأزلى، الذى أخذه على بنى آدم أن يعبدوه وحده لا شريك له، وذلك ما نقرؤه فى سورة الأعراف فى قوله -تعالى- : ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴿١٧٢﴾ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ (٣).

وهذا العهد هو ما يسألُ عنه المولى بنى آدم فى موقف الحساب سؤال تبكيت وتقريع، وذلك حيث يقول فى سورة يس : ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿٦٠﴾ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴿٦١﴾ ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون﴾ (٤).

ويلى هذا العهد الفطرى ويرتبط به تمام الارتباط ما أخذه الأنبياء على

---

(١) سورة الأنعام ٦ / ١٥٢.

(٢) سورة الإسراء ١٧ / ٢٢ ، ص ٣.

(٣) سورة الأعراف ٨ / ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٤) سورة يس ٣٦ / ٦٠ - ٦٢.

أممهم من عــهود، ومواثيق أن يؤمنوا بـالله ربًا واحدا وأن يسيـروا على هديه ووحيــه، وفى مقـدمة تلك المواثيق : مـا كان يعـقده نبـينا محـمد ﷺ مع أصحابه، وهذه بيـعتا العقبة مع الأوس، والخزرج، وتلكم بـيعة الرضوان فى الحديبية كلها تـشهد بصدق العزيمة، وروعة الوفاء، وعظمة التـضحية، حتى كان هؤلاء الأصحاب جديرين بتلك الشهادة الغالية العالية من الله -سبحانه- وذلك إذ يقول : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (١) وجعل بيعـتهم لرسول الله -صلوات الله وسـلامه عليـه- بيعـة له -سبـحانه- فـقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢).

لقد وفَّى أصحاب رسول الله ﷺ بما عـاهدوا الله عليه كل الوفاء، وقدموا دماءهم الزكية رخيصة فى سبـيل الله، بل لقد زادوا على ما قطعوه على أنفسهم من عهود تضحية وبلاء تحت راية الإيمان، ولنذكر موقف الأنصار فى غزوة بدر، إذ بعد أن خرج المسلمون للقاء العيـر : عير أبى سفيان بن حرب الذى تمكن من الفرار، وخرجت قـريش فى كبريائها ورجالاتها تعـاند الله ورسوله لم يبق أمام المسلمين سوى القتال، وهنا وقف الرسول ﷺ يستشير أصحابه، فقام المقداد بن عمرو وهو من المهـاجرين فقال : يا رسول الله امض لمـا أمرك الله فنحن معك والله لا نقول لك كـما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فـقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن نقـول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلـون، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، عند ذلك كان ﷺ يريد رأى الأنصار الذين بايعـوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه

---

(١) سورة الفتح ٤٨ / ١٨.

(٢) سورة الفتح ٤٨ / ١٠.

نساءهم وأبناءهم فقال : أشيروا علىَّ أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، فقال سعد ابن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال : «أجل» ، قال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله، لما أردت فنحن معك، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا إنا لصبر فى الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقربه عينك فسر بنا على بركة الله.

وعلى هؤلاء الرجال الأوفياء كان ﷺ يعتمد فى الملمات، فعن أنس - رضى الله عنه - قال لما كان يوم حنين أقبلت هوزان وغطفان وغيرهم بذراريهم ونعمهم، ومع رسول الله ﷺ يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء، فأدبروا عنه حتى بقى وحده، فنادى يومئذ نداءين لا يخلط بينهما شيئا : التفت عن يمينه فقال : «يا معشر الأنصار»، فقالوا : لبيك يا رسول الله، نحن معك، أبشر، ثم التفت عن يساره فقال : «يا معشر الأنصار»، فقالوا لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال : «أنا عبد الله ورسوله» فانهزم المشركون ، وأصاب غنائم كثيرة فقسمها بين المهاجرين والطلقاء، ولم يعط منها الأنصار شيئا، فقالوا : إذا كانت الشدة فنحن نُدعى، ويعطى الغنائم غيرنا ؟ فبلغه ذلك فجمعهم وقال : «يا معشر الأنصار، ما شئ بلغنى عنكم»، فسكتوا فقال : «يا معشر الأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون بمحمد ﷺ تحوذونه إلى بيوتكم» ؟ قالوا : بلى يا رسول الله، رضينا، فقال رسول الله ﷺ : «لو سلك الناس واديا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار» [1].

---

(١) رواه البخارى.

ومن هؤلاء الأنصار الأوفيـاء : أنس بن النضر - رضى الله تعالى عنه- الذى ضرب -كما ضرب الكثيرون من أصحاب رسول الله- أروع الأمثلة فى البطولة والفداء : روى أنس بن مـالك قال : غاب عـمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقـال: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتالٍ قاتلت فـيه المشركين، لئن أشهـدنى الله مع النبى قـتال المشركـين ليرين ما أصـنع، فلما كـان يوم أحد انكشف المسلمـون فـقال : «اللهم إنى أعـتذر إلـيك مما صنع هؤلاء - يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين» - ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : «يا سعد بن معاذ، : الجنةُ وربِّ النضر إنى لأجد ريحها من دون أحـد»، قال سـعد : فـما اسـتطعت يا رسول الله، مـا صنع ، ثم تقدم، قال أنس : فوجدنا به بضعًا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح، ورمية بسهم، ووجدناه وقد مثل به المشركون، فـما عرفته إلا أخته بشامة، أو ببنانه، قـال أنس: كنـا نرى أن هذه الآية نزلت فـيـه وفى أشـبـاهه : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1] .

إنها الغاية النبيلة التى يحيـا بها ومن أجلها الأفذاذ من الرجال ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ !! إنه ينتظر الفـرصة ويتـحين الوقت المناسب ليحظى بشـرف الشهـادة فى سبيل الله، إنه لا يحـيا فى دنيـاه من أجل دنيا يصيبـها أو امرأة ينكحـها، أو مال يجمعـه، أو قصر يشيـده، أو لذة عاجلة يقتنصـها، فكل هذا لا قيـمة له، كل هذا ضياع، ولكـنه يحيا وفيًـا لمبادئه، حريصـا على مرضاة ربه، يضـحى فى سبيل تلك الغـاية بما ملكت يداه من متاع، بل ويضحى بدمه لترتفع راية الإيمان فى كل البقاع . . .

---

(١) الأحزاب ٢٣.

ولقد بلغت دقة الوفاء بالعهد فى حياة الرسول ﷺ وأصحابه إلى هذا الحد الذى أصبح مضرب الأمثال، والذى جاءت به السنة الصحيحة : ونذكر في ذلك ما رواه أبو داود بسنده عن عبد الله بن أبى الحمساء قال : بايعت النبى ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية -أى: من البيع- فوعدته أن آتيه بها فى مكانه، فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث -أى من الليالى- فجئت فإذا هو فى مكانه، فقال : «يا فتى لقد شققت علىَّ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك» ووفاؤه صلوات الله وسلامة عليه- بكل عهد قطعه وكل كلمة قالها يطول عنه الحديث فهو سيد الأوفياء، ومعلمهم . . وإذا كان هذا هو شأن الرسول المعلم ﷺ فقد كان هذا من شيم صحابته الكرام : روى الإمام مسلم فى صحيحه عن عوف بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ تسعة، أو ثمانية، أو سبعة فقال: « ألا تبايعون رسول الله»؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : نبايعك يا رسول الله، قال : «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وتصلوا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا»، وأسَرَّ كلمة خَفِيَّة فقال : «ولا تسألوا الناس شيئا» قال عوف بن مالك : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا أن يناوله إياه. .

إنها الدقة فى الوفاء بالعهد، وإنه الاختيار الموفق من رسول الله ﷺ فى تلك الأمور التى يعاهد عليها أصحابه إذ هو الطبيب الماهر، والنطاسى الناجح، يصف لكل حالة مرض ما يناسبها من ألوان العلاج، وأنواع الدواء حتى أخذ بيد أمته إلى طريق الحق، ودلَّها على السبيل الواضح المستقيم، وتركها على المحجة البيضاء : ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. . فصلوات الله وسلامه عليه ورضى الله عن هؤلاء الأصحاب الأوفياء.

٢- أبواب من الوفاء :

ومن أبواب الوفاء التى أولاها ديننا العظيم عناية، ورعـاية ما تعلق بكيان الأسرة، وما يفرضه الزوج على نفسه من حقوق الزوجة، فإن الوفاء فى هذا الجانب فيه جمع للقلوب على المحبة، وبُعْدُ لها عن الشحناء والبغضاء.

روى الإمامان : البخـارى، ومسلم فى صحيحيـهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن أحق ما وفيتم به من الشروط ما استحللتم به الفروج . . »

والويل كل الويل لمن خان عـهده مع زوجه، واشـترط شرطًا وألزم نفسـه لها بحق فلم يف بعهـده يقول الرسول ﷺ : «أيما رجل تزوج امرأة على ما قلَّ من المهر أو كثُر ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقهـا، خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان، وأيما رجل اسـتدان دينًا لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه وخدعه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دَيْنَه لقى الله وهو سارق» (١).

وإذا كان من حق الدنيا أن تفاخر بما فيها من مبادئ، وقيم، وحضارات، فإن الإسلام يحظى بـالنصيب الأوفر، والجانب الأعظم فى هذا البـاب، فقد علم أتباعه كيف يلتـزمون بعهودهم، وكيف يقفـون عند شروطهم قال رسول الله ﷺ: «المسلمون عند شروطهم» (٢) ما دامت هذه الشروط متـفقة مع ما جاء فى كـتاب الله، وسنة رسوله، وإلا فـلا احترام لشرط يعـارض نصًا من نصوص هذه الشريعة الغراء السمحاء.

وفى العلاقات بين الأفراد فى باب المعاملات نجد اهتمام هذا الدِّين بالدَّيْنِ لأن من أخذ مالا من أخـيه، وجب عليه أداؤه، فذلك عهد والتـزام لابد فيه

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط وقال الهيثمى : رجاله ثقات، الحديث ١١١ من الروض الدانى إلى المعجم الصغير للطبرانى ١/ ٨٤ تحقيق محمد شكور محمد.

(٢) رواه البخارى.

من الوفاء، ولذلك يطالب الإسلام بكتابة الدين، قَلَّ أو كَثُر إلى أجله، ويشترط أن يكون الكاتب عدلا حتى لا يُزَوِّر ، وأن يُملىَ المدين حتى يكون ذلك إقرارًا منه بالدين، ولابد من شاهدَيْن، وإلا فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء، ويوجب على الشهود أداء الشهادة، لأنها أمانة يلزم أداؤها، كما أعطى الدَّيْنَ كل الضمانات فقرر الرهن مقابل الدَّيْنِ، قال تعالى موضحًا ذلك كله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾ (١) .

ومع هذه الضمانات التى تحفظ المال لأصحابه ولا تترك فرصة لأكل أموال الناس بالباطل، نجد التخويف، والتحذير من المماطلة، ومحاولة الاستيلاء على أموال الآخرين بالباطل، روى الإمام البخارى بسنده عن رسول

(١) سورة البقرة_٢ / ٢٨٢ ، ٢٨٣.

الله ﷺ قال : «من أخذ أمـوال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله.

بل وانظر معى إلـى خطورة الدَّيْن فى الحديث الذى يرويه الإمـام مسلم عن أبى قـتادة -رضى الله عنه- قـال : قال رجل يا رسـول الله، أرأيت إن قتلتُ فى سبيل الله أتكفِّر عنـى خطاياى ؟ فقال رسول الله : «نعم إن قُتلت وأنت صابر مـحتسب، مـقبل غير مـدبر، ثم قال : كيف قلت» ؟ فـأعاد ، قال: «نعم، إلا الدَّيْن فإن جبريل أخبرنى بذلك».

والمسلم الحق لا يسـتـديـن إلا إذا كـان مـضطراً، وإلا وقع فى الإثم والحرج وتعرض للعقاب يوم القيامة روى ابن ماجه عن رسول الله ﷺ قال : «إن الدين يقتص من صاحبه يوم القيامة إذا مات، إلا من تَدَيَّنَ فى ثلاث خـلال : الرجل تضعـف قوته فى سـبيل الله يتقـوى به على عـدو الله وعـدوه، ورجل يموت عنده مسـلم فلا يجـد مـا يكفنه ويواريه إلا بدين، ورجل خاف على نفسـه العُزْبة فينكح -أى يتزوج- خشـية على دينه، فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة».

وفى رواية الإمـام أحـمـد أن رسـول الله ﷺ قـال : «يدعـو الله بصاحب الدَّيْنِ يوم القيامة حـتى يوقف بين يديه فيقال : يا ابن آدم؛ فيم أخذت هذا الدَّيْنَ، وفـيم ضيعتَ حـقوق الناس ؟ فيـقول : يا رب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل، ولم أشرب، ولم ألبس ولم أضيِّعّ، ولكن أتى على إما حرق وإما سـرق وإما وضيعة، فيقـول الله : صدق عبدى، أنا أحق من قضى عنه، فـيدعو الـله بشئ فيضـعه فى كفـة ميزانه فـترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل الله».

أرأيت كيف يتـعامل المسلمُ مع إخـوانه من بنى الإنسان ؟ وكـيف يلتزم

شرع الله وهديه فى هذا الجانب من جوانب الحياة، وهل رأيت خطورة الدَّيْنِ وما فيه من مـزالق وأنه لا يجوز من أجل لذة عارضة ومصلحة متـوهمة فما بالك بمن يسـتدينون بالربا ومن يقـترضـون من أيدى أهل الكفر، والـضلال فيقعون فى بلاء عظيم نسأل الله العافية والسلامة.

٣- بواعث الوفاء بالعهد

هل بإمكان كل إنسان أن يكون وفيًا لدينه، ومـبادئ إسلامه، أو لابد من توافر أسباب تدفع صاحبها إلى الوفاء ؟ وإذا كان كذلك فما هى هذه الأسباب وتلك الدوافع وهذه البواعث ؟؟

إن الوفاء بالعهد أمرٌ صعب، وعسـير، وشاق، ولكنه سهل، ويسير على من يسَّره الله عليه، ووفـقه للسير على هديه.. وكم يود كـثير من الناس أن يكونوا أوفياء لربهم، وأوفيـاء فيما قطعوه من عهود فيـما بينهم وبين خالقهم وأوفياء لما التزموه إزاء أهليـهم وإخوانهم، ولكنْ فى غفلة من القلب، وسهو من العقل، ونسيان من الأرواح والأفئدة، وفـتور فى العزائم، يتسلل الشيطان ليسول لأصحابه الباطل ويزين لهم الخيـانة، ويدفعهم إلى عدم الوفاء، فإذا ما أردنا أن نجمع هذه الأسباب فى كلمة واحدة.. أسـباب عدم الوفاء : فإنها : الغـفلة وضعف الإرادة، وبالتـالى فإن بـواعث الوفاء تتلخص -أيضـاً- فى اليقظة وقوة الإرادة، ولذلك قال الله فى أبينا آدم عليه السلام : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [1] والنسيـان فطرة، فطر الله الناس عليها، وهو نعمة من نعم الله الجليلة، إذ لو لم ينس الإنسان آلامه، وأحزانه لمات همًا وغمًا وكـمدًا، وضعف العزيمة وقوتها ميـزة للإنسان، وعلامة بارزة فى حياته وهو بذلـك يختلف عن كثير من المخلوقـات فى هذا الوجود، لأنه

(١) سورة طه ٢٠ / ١٤.

وحده الذى تحمل مسئولية الأمانة وأُعطِىَ حرية الاختيار بين الخير، والشر قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [1] وفى ميدان التذكر واليقظة تتفاوت منازل الناس، وفى ساحة العزائم - قوة وضعفا - يتفاضل الخلق، وعلى قدر تذكرهم يكون ثوابهم، وعلى قدر عزائمهم تكون أقدارهم ومنازلهم عند الله، والناس.

ولذلك نجد فى القرآن كثيرًا من الآيات تختم بقول الله -تعالى-: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾، ولذلك حين أمر بالوفاء فى سورة الأنعام أتبع هذا الأمر بقوله : ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وأمثال ذلك كثير فى القرآن، اقرأ فى ذلك قول الله -تعالى- : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [2] واقرأ مطلع سورة النور : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [3] وفى سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [4].

ولنقف عند آيات من سورة الرعد، لنرى كيف جعل الله الموفين بعهودهم هم أصحاب العقول الراجحة، وكيف وصفهم بأعلى الصفات ومنحهم أعلى الدرجات فقال : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ / ٧٢.

(٢) سورة النحل ١٦ / ٩٠.

(٣) سورة النور ٢٤ / ١.

(٤) سورة الزمر ٣٩ / ٢٧.

صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (١).

فالتذكر من خصائص أصحاب العقول الناضجة، والقلوب النابضة، وأصحاب تلك العقول هم أهل الوفاء، وهم الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل وهم الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب.. إلى آخر ما هنالك من صفات عالية وأخلاق نبيلة وأحوال جليلة.

والشيطان لا يتمكن من زحزحة الإنسان عن طريق الله إلا إذا وجد عند هذا الإنسان غفلة، ولذلك ورد فى السنة النبوية الشريفة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسى التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس»

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله -تعالى- ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ قال : الشيطان، جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس، وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم (٢).

ومن هنا كان لابد من المداومة على ذكر الله، حتى لا يجد الشيطان ثغرة ينفذ فيها للقلب، ليصرفه عن الله، ولذلك جاء الأمر من الله بأن نذكره ذكرًا كثيرا فقال -عز من قائل- : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (٣). وقال : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ

---

(١) سورة الرعد ١٣ / ١٩ - ٢٤.

(٢) ابن كثير ٤ / ٥٧٥.

(٣) سورة الأحزاب ٢٣ / ٤١ ، ٤٢.

وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١).

والمؤمن لا يغفل عن ربه، وليس للـشيطان عليه من سبـيل، وإن حدث وطاف به طائف من الشيطان تنبه للخطر، وعرف أن هذا من وسوسة الشيطان لا من وحى الرحمن : يقول -تعالى- : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (٢).

والمؤمن انطلاقا من إيمانه بربه لا يشغله عن ذكـر الله مال ولا ولد، فهو يستجيب لهذا النداء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣).

فالمؤمن - دائما - ذاكر لربه، ولهذا فهو أبعد الناس عن الخيانة، والغدر، عن أنس رضى الله عنه قال : ما خطبنا رسول الله إلا قال : «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» (٤).

وكانت الخيانة مع جملة من الصفات الوبيئة سمة المنافق، قال رسول الله ﷺ، فيـما يرويه عنه أبو هريرة : «آية المنافق ثلاث : إذا حـدَّث كذب، وإذا وعـد أخلف، واذا اؤتمن خـان» (٥) زاد فى رواية لمسلم: وإن صـام وصلى وزعم أنه مسلم »..

وفى الحديث المتفـق عليه عن عبد الله بن عمـرو بن العاص -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال : «أربع من كن فيـه كان منافقًا خالصًا، ومن

---

(١) سورة الجمعة ٦٢/ ١٠.
(٢) سورة الأعراف ٧ / ٢٠١.
(٣) سورة المنافقون ٩٣ / ٩.
(٤) رواه الإمام أحمد.
(٥) متفق عليه.

كانت فيـه خصلة منهن كانت فيـه خصلة من النفاق حتـى يدعها : إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [1].

إذن فـهـو الذكـر الـدائم الذى يبـعث على كـل خلق كـريم، وفى مقدمتـها: الوفاء بالعهد، ولكن هذا الذكر المتـواصل لله، لابد أن يقترن بعنصر آخر، ويتفاعل معـه، ذلك هو الإرادة القوية، والعزيمة الثابتة التى لا تعرف التـردد فى سبيل الوصول لتـحقيق غاياتهـا، وهذا ما رأيناه من حال أصـحاب رسـول الله ﷺ الذين ضحـوا بدمائهم وأرواحـهـم، ولم يعرفوا مجـالا للتردد فيما عاهدوا عليـه الله ورسوله، ولذلك كانوا أهلاً للسيادة، والريادة، والقيادة، وشرقوا وغربوا ورفعوا راية التوحيد فى كل مكان واستـحقوا الثـواب الجزيل والأجر العـظيم من رب العالمين. . ولا يمكن لأمة ولا لجماعة ولا لفرد أن يسود ويقود إلا إذا كان صاحب عزيمة قوية وإرادة نافذة.

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يُفقِر والإقدام قتَّال

ولهذا وجدنا تكاليف الإيمان باهظة وشاقة لأن مقابلها شئ لا يقدر بمال ولا يوزن بعـرض من أعـراض الدنيا، إنه الجنـة التى عرضـهـا السمـوات والأرض يقول تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [2]
ويقول تـعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [3].

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة العنكبوت ٢٩ / ٢ ، ٣.

(٣) سورة البقرة ٢ / ٢١٤.

وفى بيان ذلك يقول الصحابى الجليل خباب بن الأرت -رضى الله عنه- : «قلنا : يا رسول الله، ألا تستنصر لنـا ألا تدعو الله لنا - وقد كان هذا فى مكة والمسلمون مطاردون مستضعفون - فقال رسـول الله ﷺ : «إن مَنْ كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه، فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحـمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال ﷺ : «والله ليتـمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعـاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تسـتعجلون»، فالتذكر والذكر الدائم، والعزيمة القوية هى بواعث الوفاء بالعهد.

٤- حث الإسلام على الوفاء بالعهد

لقد رأيـنا الكثيـر من الآيات التى ترغب فى الوفاء وتحث عليـه، وهناك الكثير من الآيات فى هذا الباب نـقرأ منها فى سورة النحل : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) ففى هذه الآيات الكريمة يأمر المولى -سـبحانه- بالوفاء بعهـده، وعهد الله شـامل لما بين العبد والخالـق ولما بينه وبين المخلوق، وما دام

---

(١) سورة النحل ١٦ / ٩١ - ٩٦.

المؤمن قد أعطى عهده وأكـده وجعل الله وحده عليه كفيـلا وحافظًا وضامنًا فلا يجوز له نقض هذا العهد، لأن نقـضه بعد هذا كله لا يليق بأهل الإيمان وليعلم الناقضون لعهدهم أن الله يعلم ما يفعلون، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون، وهذه الأيمان وتلك العهود التى لا تنقض هى التى لا تكون فى مـعصية أو التى لا يرى صاحبـها أن غيرها خـير منها، فقـد يحلف البعض على أمر فـيه ضرر لأهله أو لغيرهم فـيدفعه كبره إلى عـدم التراجع عما حلف عليه فهـذا عهد فى عنقه يُصِرُّ على الوفاء به، وهو بذلـك واهم ومخطئ، روى البخارى بسنده عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «والله لأن يَلِجَّ أحـدكم بيمينه فى أهله آثم له عند الله من أن يعطى كفارته التى افترض الله عليه» [١].

فالرسـول ﷺ يقسم على أن الإصرار على تنفـيذ ما حلف عليه بما فـيه ضرر لأهله أعظم إثمًا عند الله من أن يتـراجع عن يمينه، ويعطى كفارته التى افترض الله عليه إن كان فى هذا التراجع إثم حسب ظن الحالف.

وقد يحلف فيجد أن الخيـر فى ترك ما حلف عليه، وعليه أن يرجع عما حلف وأن يكفِّر عن يمينه، ولذلك يروى الإمام البخارى بسنده عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال . . «لا أحلف على يمين فأرى غـيرها خيرًا منها إلا كَـفَّـرْتُ عن يمينى، وأتيت الذى هو خـيـر، أو وأتيت الذى هو خـيـر، وكفـرت عن يمينى» وروى البخارى -أيضـا- عن عبد الرحمن بن سـمرة أن النبى ﷺ قال له : «إذا حلفت على يمين فـرأيت غيرها خيرًا مـنها فكفِّر عن يمينك وائت الذى هو خير» [٢].

ومن أعطى موثقه وعـهده يجب ألا يفرط فيما عـاهد الله عليه وإلا كان

---

(١) صحيح البخارى جـ ١١ ص ٥١٧ كتاب الأيمان والنذور.

(٢) صحيح البخارى جـ ١١ ص ٥١٧ كتاب الأيمان والنذور.

حاله كـحال هذه المرأة الخـرقاء التى كانـت تغزل، فإذا مـا انتهت من غـزلها نقضته وكـانت هذه المرأة فى مكة يعرفها الناس، فجعلهـا الله مثلا لمن نقض عهده من بعد إحكَـامِه. . ولا يترك القرآن فرصة لتوثيق الـعهد إلا حث عليه وأمر به، ولا يقبل من أحد أن ينقض عهده لأن خصمه ضعيف، وهو قوى، أو لأنه ضعيف وخصمه قـوى وذلك ما يّشير إليه قوله : ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ فالأيمان لا تكون للتمـويه والتضليل وجلب المنافع والتخلى عن المسـئولية، فلا يبالى القـوى بحق الضعيف، ولا يكترث الضعيف بعهده مع القوى حين يجـد الفرصة للانقضاض، فهذا ابتلاء للفريقين، ويوم القيامة سوف يتبين كل ما أقدم عليه وما اختلف فيه مع غيره، وهل هو محق فيما فعل أو غيـر محق؟ وكم فى أمثال هذه المواقف من ضياع للفرد والجماعة، إنها تجر الأمم، والشـعوب، والأفراد إلى التعادى، والتناكر، والتقاتل، وتشعل نيران الفتن التى تأكل الأخـضر واليابس، ولذلك قال تعالى : ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وأى مال وأى جاه وأى منصب، بل والحـياة كلها بكل ما فيهـا من متاع لا يعدل الوفاء بعهد الله، ولا يستـحق أن يخون المؤمن عهده من أجل هذا العرض الرخيص قـال تعالى : ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ ويا لها من صـفقة خاسرة، إذ لا يبـقى منها لمشتريهـا شئ إلا ما يقدم من عمل صـالح، وكل ما جمعت من متاع إنما هو إلى زوال : إما أن تفارقه أو يفارقك، ولذلك قال تعالى : ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ والأمر- إذن يحتاج إلى صبر ومـجاهدة للنفس، حتى لا تنسى أمام إغراء الحياة الدنيـا ومباهجها عـهدها مع الله، ولذلك قال : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وكيف تنسى عهدها وتبـيع دينها بثمن بخس ؟

وكيف يخون مؤمن عهده مع ربه، وهو يقرأ فى كتاب الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(1).

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ما أخرجه البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من حلف على يمين هو فيها فاجر، ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان» فقال الأشعث بن قيس فِيَّ والله كان ذلك، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى، فقدمته إلى النبى ﷺ فقال لى رسول الله ﷺ : «ألك بينة» ؟ قلت : لا ، قال لليهودى : «احلف» فقلت: يا رسول الله، إذن يحلف فيذهب مالى، فأنزل الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ -أى لا نصيب لهم فيها- ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد روى فى سبب نزولها أيضا ما أخرجه البخارى وغيره من أنها نزلت فى رجل كان يحلف بالسوق، لقد أُعطِىَ بسلعته ما لم يعط بها، وذلك ليغرر غيره ويوهمه بارتفاع الثمن. . وفى ذلك من الظلم ما فيه، وصاحبه يستحق هذا الزجر الشديد، والعقاب الأليم.

إن الوفاء بالعهد خلق أهل الإيمان وهو وسيلة الفلاح قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)﴾ إلى أن قال : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ فهم مراعون، ومحافظون، ومراقبون لخواطرهم، وأحوالهم، وقلوبهم، حتى يؤدوا أماناتهم، وعهدهم على خير ما يكون الأداء وأمثال هؤلاء جديرون بهذا الجزاء، قال تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ

---

(1) سورة آل عمران ٣ / ٧٧.

الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ وكمـا قال فى سورة المعارج: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ والمؤمن لا يعرف نقضـًا لعهده حتى مع الـكافرين الذين سـالموه، وأرادوا الحياة فى ظل الإسـلام، ولذلك ورد فى الحديث : «أيمـا رجل أمَّن رجلا على دمه ثـم قتله فأنا مـن القاتل برئ وإن كان المقتول كافراً» [1].

ولقد وصل ديننا إلى مرتبة راقية فى معاملة خصومه، فهو لا يجيز مباغتة العدو قبل إعلانه برد العهد الذى بينه وبينه يقول تعالى : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [2] ويؤكد هذا الأمر قول رسول الله ﷺ : «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن لهم عهداً ولا يشدنه حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم على سواء» [3].

أرأيت هذا المسـتوى الرفـيع من الخلق الإسلامى النبـيل، فلنكن أوفـياء لربنا، وأوفياء لرسولنا وأوفياء لأهلينا ولكل من له علينا حق الوفاء..

---

(١) رواه ابن حبان.

(٢) سورة الأنفال ٨ / ٥٨.

(٣) رواه الترمذى وأبو داود.

الفصل الرابع

الأمانة

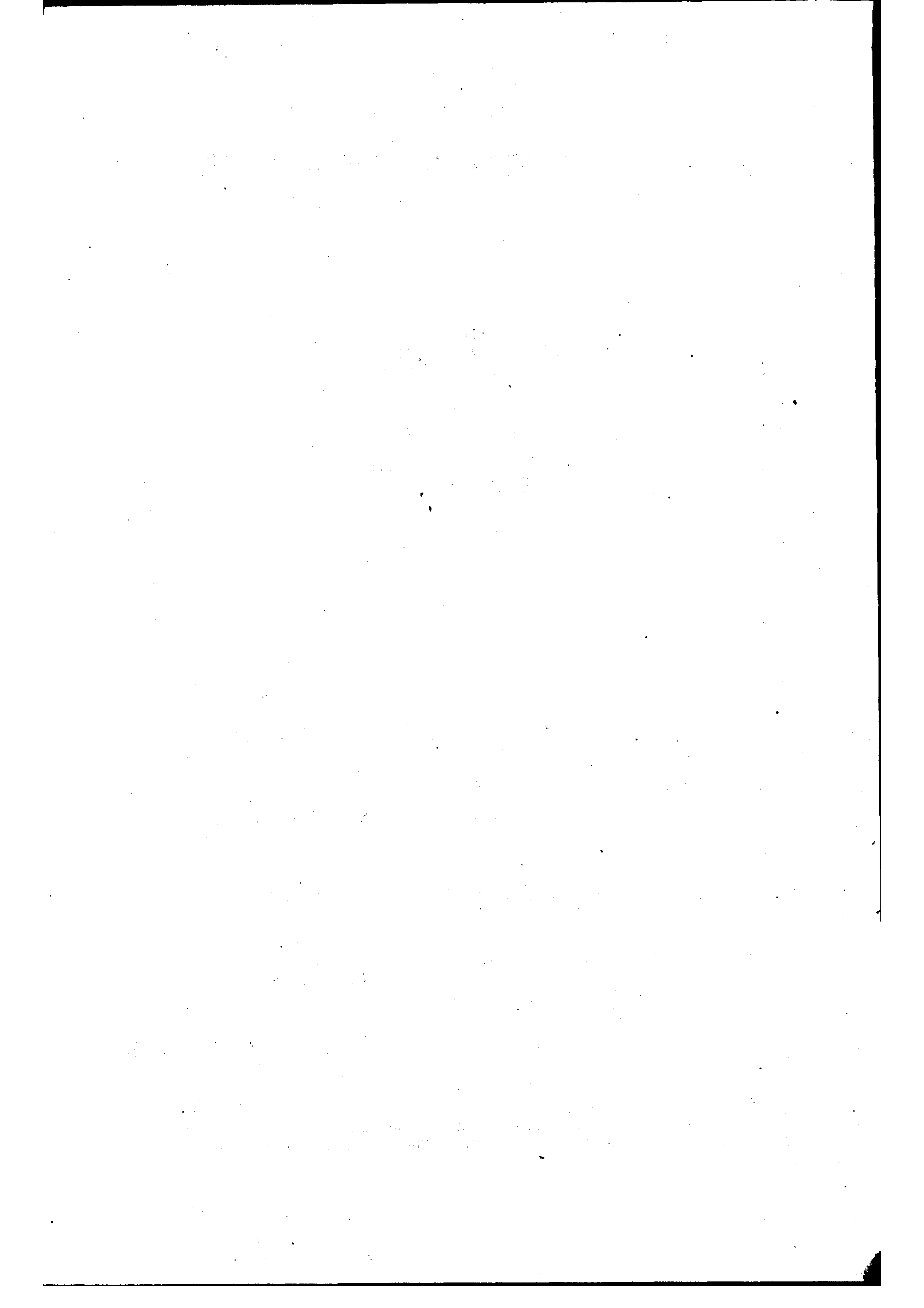
١- معناها

٢- مجالاتها

٣- الأمانة : حِمْلٌ ومسئولية

٤- كيف ترفع الأمانة من القلوب ؟

٥- المؤمن أمين



الفصل الرابع

الأمانـــة

١- معنـاهـــا :

ماهى الأمانة ؟ وما هى مـجالاتها ؟ وماذا جاء فيهـا من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ مما يـرغب فيهـا، ويبين منزلتها، وينـفر من ضدها ؟ وكـيف أوجد الإسلام مجتمعا فريدًا نادرًا فى أمـانته؟ ولولا أنه مجتمع شهد بوجوده الواقع لقلنا إنه فى أمانته فـاق خيال أصحاب المدن الفاضلة من أصـحاب الفلسفات عبر التاريخ الإنسانى..

نعم : ما هى الأمانة ؟ إنها لا تخفى على أحـد، لأنها قوام حياتنا، إنها الثقة والأمان الذى يهـيمن على تصرفات وأحوال الإنسان فيـدفعه إلى أداء ما وجب عليـه تجـاه الله والناس، إنهـا هذا الخلـق الرفيـع الذى يأوى إلى ظله الرحيب كل مكروب أتعبته الحـياة، فيـجد عند أصحـاب هذا الخلق الراحة والسعادة واليـقين، إنها عالم رحيب ملئ بالأمن : لا يـعرف الخوف إلى بابه سـبيـلا، وبالحب : لا يعـرف البغـض إلى نوافذه طريقًـا، والأمـانة تعنى: الرجولة فى أسمى مـعانيها، ونقاء السـريرة فى أبهى حلله، وعزة الإيمان فى أكمل مـظاهرها، وإذا كان هذا هو مـا تعنيه الأمـانة، فلا غرو أن كـانت من صفات الأنبـياء،وفى مقدمتـهم نبينا محمـد ﷺ، الذى لقب منذ حداثة سنه بالصادق الأمين، واقرأوا إن شـئتم فى سورة الشعـراء ما حكى الله عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وكل منهم يقول لقومه: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ ، وكانت كـذلك من الصفـات العاليـة لملك الوحى جبريل عليه السلام وذلك ما تقرؤه فى سورة التكوير : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ .

وهذا موسى عليه السـلام حين خرج من مصر وورد ماء مـدين ماذا كان

من أمره ؟ لقد ظهرت مخايل النبل والشهامة والنجدة والأمانة فى كل ما فعل ولم يلجئه فقره وحاجته إلى أن يريق ماء وجهه أو يخون أحدًا من الناس قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [١] .

وهذا كان من قبل أن يُوحِيَ الله إلى موسى، ولكن هكذا الأنبياء يختارهم ربهم على علم منه: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [٢] فهو يختارهم من أزكى الناس خلقًا، وأحسنهم معدنًا، وأنقاهم سريرة، وأعلاهم منزلة وشرفًا . .

٢- مجالاتها :

وكثير من الناس يظن أن الأمانة إنما تكون فى الودائع والمحافظة عليها وردها الى أصحابها كاملة غير منقوصة إذا ما طلبوها، وهذا فى الحقيقة مجال واحد، وباب واحد من مجالات الأمانة وأبوابها، ومجالاتها كثيرة وأبوابها متعددة حتى لتشمل نواحى الحياة كلها وترتبط ارتباطًا وثيقًا بكل أمر دينى ودنيوى، وتلتصق التصاقًا وثيقًا بعلاقة الإنسان بربه وعلاقته ببنى الإنسان ولذلك قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [٣] : هذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق

---

(١) سورة القصص ٢٨ / ٢٤ - ٢٦ .

(٢) سورة الأنعام ٦ / ١٢٤ .

(٣) سورة النساء ٤/ ٥٨ .

الله عز وجل على عباده : من الصلاة، والزكاة ، والصيام، والكفارات، والنذور ، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك فأمر الله - عز وجل- بأدائها فمن لم يفعل ذلك فى الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجَمَّاء من القرناء» وعن ابن مسعود قال : إن الشهادة تكفِّر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قتل فى سبيل الله فيقال : أدِّ أمانتك، فيقول: فأنى أؤديها وقد ذهبت الدنيا ؟ فتمثل له الأمانة فى قعر جهنم فيهوى إليها فيحملها على عاتقه، قال : فتنزل عن عاتقه فيهوى على أثرها أبد الآبدين وفى عموم الأمانة لكل أمر وكل شأن، يقول أبو العالية : الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه [(1)].

وهل ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله إلا أوامر ونواه ؟ فمن خالف أمرًا أو ارتكب ما نهى الله عنه ورسوله فقد خان الأمانة.

٣- الأمانة حِمْلٌ ومسئولية :-

وعلى ذلك فالأمانة : حمل ومسئولية واجبة الأداء، وصاحبها بحاجة إلى عون الله، حتى يقوم بأدائها، ولعل هذا هو الذى جعل سلفنا الصالح يقول الواحد منهم للآخر وهو يودعه : استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك .. وما ذلك إلا ثقة منهم بأن الله وحده هو الذى يحفظ للإنسان المؤمن هذه النفائس الغالية : الدين والأمانة، وخواتيم الأعمال الصالحة.. ولِمَ لا تكون حملا ثقيلا وعبئًا ضخمًا، وقد ناءت بحملها السموات، والأرض والجبال قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

(١) تفسير القرآن العظيم : لابن كثير جـ ١ ص ٥١٥.

وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ (١).

قال ابن عباس -رضى الله عنهما- : الأمانة : الفرائض التى عرضها الله على السموات، والأرض، والجبال إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك، وأشفقوا منه من غير معصية ولكن تعظيمًا لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله -تعالى -: ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ . . ، وتلا الحسن البصرى هذه الآية ثم قال : عرضها على السبع الطباق الطرائق التى زينت بالنجوم، وحملة العرش العظيم فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها : قالت : وما فيها : قال : قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت قالت : لا : ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد، التى شدت بالأوتاد وذللت بالمهاد، قال : فقيل لها هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها قيل لها : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت، قالت : لا ، ثم عرضها على الجبال الصم الشوامخ الصعاب الصلاب قال: قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال لها إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت، قالت : لا (٢).

وهكذا أبت السموات والأرض والجبال أن يحملن الأمانة وأشفقن من تبعاتها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولا، لا يدرى العواقب، والظلم والجهل : ظلم الإنسان لنفسه وجهله بعاقبة أمره، هما سبب كل سقطة وخطأ إذ لا يمكن للإنسان أن يفرط فى شئ من أمر دينه أو دنياه إلا وهو ساه غافل ظلوم جهول.

ولذلك تقرأ بعد هذه الآية -آية الأمانة- بيان الله لحال فريقين من الناس:

(١) سورة الأحزاب ٣٣ / ٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٢٢.

فريق غلبه جهله وخيم عليه ظلمه وظلامه، فأظهر الإيمان وأبطن الكفر أو جاهر بكفره بالله، وفريق انتصر على ضعفه وعرف طريقه إلى ربه، والفريق الأول يمثله المنافقون والمشركون، والثانى يمثله المؤمنون، ولكل فريق جزاؤه قال تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١) .

٤- كيف ترفع الأمانة من القلوب ؟

ولذلك لابد من المجاهدة واليقظة التامة للمحافظة على هذه الأمانة وجدانًا حيًا نابضًا بالقوة والحركة، يدفع إليه ويحركه فى الكيان الإنسانى خوف من الله ورقابة دائمة دائبة لا تفتر وإلا تسربت الأمانة يوما بعد يوم من الحس البشرى وبقيت مجرد أمان وأحلام وخيالات حتى لتبحث فى القوم فَقَلَّ أن تجد فيهم أمينا.

وقد أخبرنا رسول الله بذلك كله وأنه واقع لا محالة، ليحذرنا من الوقوع فيه وذلك فى الحديث الذى رواه البخارى، ومسلم، والترمذى عن حذيفة بن اليمان حيث قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين -أى فى الأمانة- قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، وحدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال -أى فى أصلها- ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت -أى: كالنقطة على الصحيفة- ثم ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل -والمجل غلظ الجلد من أثر العمل- كجمر دحرجته على رِجْلك فنفط فتراه منتبرًا وليس فيه شئ -أى: منتفخا من أثر مرور الجمر عليه- ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله،

(١) سورة الأحزاب ٣٣ / ٧٣.

فيصبح الناس يتبايعون - أى: يبيع بعضهم بعضًا- فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أمينًا حتى يقال للرجل. ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولقد أتى علىَّ زمان وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلمًا ليردنه على دينه، وإن كان نصرانيًا أو يهوديًا ليردنه علىَّ ساعيه، وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانًا وفلانا»[(1)].

والأمانة فى هذا الحديث هى الفرائض التى أمروا بها ونهوا عنها كما قال ابن عباس ، وقيل: هى الطاعة، وقيل: التكاليف وقيل: العهد الذى أخذه الله على العباد، ولا خلاف بين هذه الأقوال ، والأولى أن يقال: بأن الأمانة المذكورة فى الحديث هى الأمانة المذكورة فى قوله -تعالى- : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ وهى عين الإيمان فإذا استمكنت فى القلب قام بأداء ما أمر به واجتنب ما نُهِى عنه، وذلك هو معنى الحديث الأول: أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال أى: استقرت فى أعماق هذه القلوب فأصبحت لها سجية، وفطرة ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة فازدادت هذه القلوب بعلمها بكتاب الله، وسنة رسوله ثباتًا على الحق وأداءً لواجب الإيمان واستمساكًا بهذا الدين، ولكن العلم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إن لم يبق دافعًا إلى العمل الصادق، ثابتًا أمام أهواء النفس يكبح جماحها كلما أرادت التفلت والانطلاق ، فلا فائدة منه ولا يغنى عن صاحبه شيئًا بل ربما كان حجة عليه، وحينذاك تعصف أهواء النفس بما فى القلب من الأمانة وذلك هو معنى الحديث الثانى الذى حدث به رسول الله ﷺ أصحابه ورواه لنا حذيفة بن اليمان فى باب الأمانة وكيف ترفع من القلوب، فالرجل ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر

(١) رواه البخارى مسلم والترمذى وابن ماجه.

الوكت، والوكت هو السواد فى اللون، وهذا بيان لتغير القلوب وانحرافها عن الجادة وإن لم تشعر بذلك. وتمر الأيام وينام الرجل نومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المَجْل، والمجل : الانتفاخ فى اليد من أثر العمل أو من وقوع شئ حار على جزء من البدن، وقد بينه الرسول الكريم فى قوله «كجمر دحرجته على رجلك فنفط -أى: ورم وامتلأ ماءً- فتراه منتبرا أى منتفخًا وممتلئًا وليس فيه شئ، وهذه مرحلة أخرى من مراحل رفع الأمانة حيث يبدأ الانحراف والانحدار من سماء الطهر، والنقاء، والطاعة إلى حضيض الخبث والغبش والمعصية، وحينذاك تصبح الأمانة بضاعة نادرة، ويصبح الأمناء قلة ويصبح الناس يتبايعون أى يبيع بعضهم بعضًا فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أمينا وحتى يقال للرجل ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان.

يقول ابن العربى : المراد بالأمانة فى حديث حذيفة : الإيمان، وتحقيق ذلك فيما ذكر من رفعها أن الأعمال السيئة لا تزال تُضْعِف الإيمان حتى إذا تناهى الضعف لم يبق إلا أثر الإيمان، وهو التلفظ باللسان والاعتقاد الضعيف فى ظاهر القلب، فشبه بالأثر فى ظاهر البدن، وكنى عن ضعف الإيمان بالنوم وضرب مثلا لزهوق الإيمان عن القلب حالا بزهوق الحجر عن الرجل حتى يقع بالأرض.. [1].

وقد بين حذيفة -رضوان الله تعالى عليه- ماكان من أمر هذه الأمانة حين كان الدين غضًا نديًا فى القلوب، وكانت الأمانة سمة بارزة فى أخلاق أبنائه، والمستظلين بلوائه فقال : ولقد أتى علىَّ زمان وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلمًا ليردنه على دينه، وإن كان نصرانيًا أو يهوديًا ليردنه على ساعيه. فهو

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١٣ ص ٤٠ كتاب الفتن باب إذا بقى فى حثالة من الناس.

فى بيعه وشرائه ومعاملاته مع أفـراد الأمة واثق من أنه سيحصل على حقه لا محالة، لأنه إن كـانت معاملته وحـقه لدى مسلم فسـوف يرده دينه وإسلامه وخوفه من الله إلى إعطاء الحق وسوف يبعـده عن الظلم، وإن كانت معاملته وحقـه مع نصرانى أو يهودى من أهل الذمـة وأراد واحد منهم ظلما فـسوف يدفع هذا الظلم ساعيه ووليه والقائم على أمره من حكام المسلمين.

كما بين -رضوان الله عليه- بوادر الأمـر الثانى حين أطلت الفتنة برأسها - فقد توفى -رضى الله عنه- فى أول سنة ست وثلاثين بعد مقتل عثمان بقليل - وذلك حيث يقول : وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا. .

فهـو حذِرٌ من معاملة الكثـيرين من الناس، ولا يبيع، ويشـترى إلا من أناس عرفهم بأمانتـهم. . فهو يرى أن الأمانة بالنسبة للعـصر النبوى قد قلّت ولم تعد كمـا كانت خلقًا شاملا عامًـا لأبناء الإسلام، وأما الذى ينتظره ولم يره فهو فقد الأمانة من الجميع إلا من عصم الله وقليل ما هم.

فليحـذر المؤمن فتن الزمان، وتقلبـات الأيام، وليحرص على مـا بقلبه من إيمان وأمانة، وليبـتعد عن الخائنين ودواعى الخـيانة ليَسْلم له دينه، وليعـبر قنطرة الحياة الدنيا إلى جنة عرضهـا السموات والأرض أعدت للمتقين، ولذلك وصف الله المؤمنين الذين حق لهم الفلاح، والفوز فى الدنيا، والآخرة بصفات عظيمة، ومنها : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [1]، فهم - دائما - لا يغفلون عن أماناتهم وعـهدهم، إنما يحـرصون على ذلك أشد الحـرص ويلاحظونه كل الملاحظة ولا يتركون خـاطرة تعكر عليهم صفو صدقهم فى أداء مـا افترض الله عليهم، وهكذا كل مؤمن صادق الإيمان.

(١) سورة المؤمنون ٢٣ / ٨ ، المعارج ٧٠ / ٣٢.

٥- المؤمن أمين :

ولم يترك الإسلام بابًا من أبواب الأمانة إلا وأفاض فيه الحديث وفصَّل فيه القول، ودعا أتباعه إلى التزام ذلك بعد أن حمَّل كل مسلم مسئوليته أمام ربه: روى البخارى عن ابن عمر -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته»، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته» . .

وبين ﷺ أن الإيمان والأمانة قرينان لا يفترقان فإن ذهب أحدهما ذهب الآخر وذلك فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أنس قال ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال : «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» والقرآن يؤكد هذه الحقائق ويحذر من الخيانة كل الحذر وينادى المؤمنين بصفة الإيمان ليدفعهم إلى أداء ما وجب عليهم تجاه ربهم ورسولهم فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

فمحبة المؤمن لماله وولده لا ترقى لمحبته لله ولرسوله، ومحبته لماله وولده لا تجرفه إلى أودية الهلاك والبوار، ولا تدعوه إلى مخالفة الله ورسوله. . ولا تضيع عليه ما أعد الله له من أجر عظيم عنده . .

فالمسلم أحرص الناس على أداء واجبه كاملا، إنه لا يعرف التكاسل ولا تزجية أوقات العمل المكلف به فى سرد الحكايات وقراءة الصحف، ولا يرضى لنفسه أن يراوغ ويماطل لسبب ولغير سبب، حتى يتخلف عن حضور عمله، ويأبى عليه دينه أن يأخذ أجرًا على عمل لم يعمله، ويوم أن استهان

(١) سورة الأنفال ٨ / ٢٧ ، ٢٨ .

الناس بما كلفوا به من أعمال تعطلت المصالح، واستشرى الفساد، وأصاب أمة الإسلام الوهن والضعف، والمسلم أمين على عمله : لا يراقب رئيسًا ولا مرءوسا إنما يراقب ربه ويدرك بأنه لو قصر فى أداء عمله ولم يخلص فيه كل الإخلاص ولو لم يستنفد كل طاقته فى سبيل إجادة ما كلف به، فقد خان الأمانة، وأكل سحتًا، وأضاع حقوق الخلق، وعلى قدر ما يكلف به المرء على قدر ما تعظم أمانته، وبالتالى تعظم خيانته يقول الرسول الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- : «إذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء يعرف به، فيقال : هذه غدرة فلان» - هذه رواية البخارى- وعند مسلم : «لكل غادر لواء عند أسته يرفع له بقدر غدرته، ألا ولا غادر أعظم من أمير عامة» ويالها من فضيحة فى الموقف المشهود، وهذا لواء الغدر وعَلَمُه مرفوع عند أست الغادر، وأمير العامة ومن يتولى أمور الناس هو أشد الناس خيانة وأعظمهم فضيحة، لأنه فرط فيما وكل له ونيط به فأضاع البلاد والعباد.

والمسلم إذا تولى أمر المسلمين لا يولى عليهم من لا يصلح للولاية وليس للقرابة، ولا للصداقة، ولا للعلاقات الخاصة سلطان على أمير المؤمنين، والمعيار الثابت لتولى وظائف الدولة هو الكفاءة التى تتيح لصاحبها أداء عمله على الوجه المطلوب، وهذه أمانة فى عنق الحاكم المسلم فإن ولَّى من ليس أهلا للولاية لقرابة أو صداقة فقد خان الله والرسول.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» [رواه الحاكم] وروى أيضاً - عن يزيد بن أبى سفيان قال : قال لى أبو بكر الصديق حين بعثنى إلى الشام: يا يزيد، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله : مَن ولى مَن أمر المسلمين شيئًا فأمر

عليهم أحدًا محاباة ، فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلا حتى يدخله جهنم.

ولوحدث هذا وتولى أمور الناس من لا يصلح لها لكان فى ذلك إهلاك للأمة وإفساد لشئونها، وتعطيل لمصالحها، ولكَانَ من فعل ذلك خائنًا أعظم خيانة، وقد أخبرنا رسولنا -صلوات الله وسلامه عليه- بأن هذا سيقع آخر الزمان روى البخارى بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال : بينما رسول الله فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله يحدث ، فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم ، بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة» ؟ قال : ها أنا يا رسول الله ، قال : «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال : وكيف إضاعتها يا رسول الله ؟ قال : «إذا وُسِّدَ (أى أسند) الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

ولتولى الوظائف والأعمال مؤهلات لابد من توافرها فلا يكفى أن يكون الرجل صالحًا فى نفسه، تقيًا نقيًا وهو لا يحسن إدارة ما يناط به وعلى رئيس القوم وأميرهم أن يلحظ ذلك، وهذا أبو ذر الغفارى -رضى الله عنه- وهو من هو فى صلاحه وتقواه، يروى الإمام مسلم بسنده عنه أنه قال : قلت يا رسول الله، ألا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال : «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى، وندامة إلا من أخذها بحقها وأدَّى الذى عليه فيها» !!

وفى رواية أبى داود أن رسول الله ﷺ قال له : «يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى : لا تأَمَّرَنَّ على اثنين ولا تولين مال يتيم» ولذلك نرى يوسف الصديق -عليه السلام- حين طلب من ملك مصر

أن يوليه بيت المال لم يقدم نبوته وصلاحه وتقواه وعفته وطهارته فحسب لتكون مؤهلات ترشحه لتولى شئون بيت المال، إنما ذكر أمرين هما مناط النجاح فيما طلب بالإضافة إلى مؤهلاته الأخرى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [1] فشدة حفظه، وسعة خبرته بتلك الشئون. مع ما عرف الملك من عفته، وأمانته كل هذا رشحه لتولى هذا المنصب الخطير.

والمسلم إذا تولى عملا من الأعمال لا يتطلع إلى غير ما أحلَّ الله له من راتب يتقاضاه أو مكافأة يأخذها، ولا تمتد يده إلى أكثر من ذلك، فهو يدرك أنه بإخلاصه فى عمله وأمانته على ما ولاه الله عليه، وعدم استغلاله لوظيفته فى التشبع من المال الحرام كالمجاهد فى سبيل الله ، فقد قال رسول الله ﷺ : «العامل اذا استُعمل فأخذ الحق وأعطى الحق لم يزل كالمجاهد فى سبيل الله حتى يرجع إلى بيته» [2] فإن جعل وظيفته وسيلة لجلب المنافع له أو لقرابته دون وجه حق فإنما هو خائن للأمانة.

روى أبو داود عن رسول الله ﷺ قال : «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقًا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول» . . ويوضح ذلك ما رواه الإمام أحمد عن المستورد بن شداد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا، أو ليست له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادمًا أو ليس له دابة فليتخذ دابة، وما أصاب شيئًا سوى ذلك فهو غلول» ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [3].

---

(١) سورة يوسف ١٢ / ٥٥.

(٢) روه الطبرانى.

(٣) سورة آل عمران ٣ / ١٦١.

ولهذا كان بعض الصحابة يستميح الرسول الكريم عـذرًا فى عدم توليه عملا حتى لا يقع فى هذا الإثم العظيم : روى الإمام أحمد عن عدى بن أبى عميـرة الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيهـا الناس من عمل لنا منكم عملا فكتمنا منه مخيطًا فما فوقه فهو غُلٌّ يأتى به يوم القيامـة»، قال: فقام رجل من الأنصار أسـود قال مجاهد : هو سـعد بن عبادة كـأنى أنظر إليه - فقال : يا رسـول الله، اقبل منى عملك ، قال : «وما ذاك» ؟ قال سـمعتك تقول كذا وكذا، قال: «وأنا أقول ذلك الآن، من استعملناه على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتى منه أخذه، وما نهى عنه انتهى».

وهذا أبو مسعود الأنصارى -رضى الله عنه: يقول فيما رواه أبو داود : بعثنى رسول الله ﷺ ساعيًا ثم قال : «انطلق أبا مسعود لا ألفيتك يوم القيامة تجئ على ظهـرك بعيـر من إبل الصـدقة له رغـاء قـد غللته»، قـال : إذًا لا أنطلق، قال : «إذًا لا أكرهك».

وهذا الذى جلس فى بيته ولم يتول عـملا ومنصبًـا مرموقًـا، أكان من الممكن أن تأتيـه الهـدايا والعطايـا والمنح لو لَم يكن فى هذا الـعـمل وذلك المنصب؟ أكان من المتـوقع أن تفتح له الأبواب المغلقة وأن تقضـى له الحاجات لو لم يكن فى هذا الموضع من الأمة؟ وليت الأبواب حين فـتحت والحاجات حين قضيت جعلها لمساندة الضعفاء والمحتاجين، ولقضاء مصالح غير القادرين ولتيسير الأمور على المعسرين ولم ينـتهزها فرصة للكسب الحرام، وللحصول على المنافع له ولذويه ومعارفه على حساب الآخرين، فإن فعل فهو خائن.

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى حميد السـاعدى قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأزد يقـال له ابن اللتبيـة على الصدقة -أى يجمع أموال الزكاة- فجـاء فقال : هذا لكم وهذا أهدِى لى : فقـام رسول الله ﷺ على

المنبر فقال : «مـا بال العامل نبعثه على عمل فـيقول : هذا لكم وهذا أهدى لى، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا، والذى نفس محمد بيده لا يأتى أحدكم منهـا بشئ إلا جاء به يوم القيامة على رقبـته وإن بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيـعر»، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ثم قال «اللهم هل بلغت» - ثلاثا . .

فانظر إلى أدب رسـول الله ﷺ وعظيم حكمته فى تربيـة أمته، إذ لم يكن من خلقه أن يشهر بالمخطئين والمذنبين، إنما يستر عليهم خطأهم وذنوبهم، وفى الوقت نفسه يجعلها مناسبـة لتوجيه المؤمنين إلى ما فيه خـيرهم فى الدنيـا، والآخرة، ثم انظر مـعى إلى هذا التـأنيب وتلكم السخرية فى هذا الاسـتفهام التقـريعى الإنكارى، «أفلا جلس فى بيت أبيه وأمـه فينظر أيهدى إليـه أم لا» ؟ ثم هذه الصورة التى رسمـها لمن أخـذ فـوق مـا عـرض له من راتب أو مكافـأة ، والـناس فى الموقف المشهود يوم القـيامة يرون رجلا يحـمل على رقبته بعـيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر، لتكون أصوات هذه الحيوانات هى الأخرى ملفتة للأنظار تفضح الخائنين.

وقد سـاق -صلوات الله وسلامه عليـه- تلك المشاهد فى أسلوب مـؤكد بالقول والعمل فقد قال فى بدايته مـقسمًا : «والذى نفس محمد بيده» . . وفى نهايته : يرفع - صلوات الله وسلامه عليه - يديه حتى رأى أصحابه بياض إبطيه ثم قال : «اللهم هل بلغت - اللهم هل بلغت - اللهم هل بلغت» وما ذلك كله إلا تنفير وترهيب وتخويف من الخيانة وحث وترغيب فى الأمانة.

ومما جاء به ديننا العظيم فى باب الأمانة أنك إذا كنت فى مجلس فإن ما دار فيه من حـديث سر يجب أن يصان فـعن جابر -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ

قال : «إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهى أمانة» (١) ومعناه أنه لا يجوز ولا ينبغى إفشاء ما سمعت من حديث صاحبك إلا بإذنه، وأسوأ الخيانة هى ما تعوّده بعض مرضى القلوب من نقل أحاديث المجالس إلى رؤسائهم تزلفًا لهم وتقربًا، وعلى الرؤساء أن يحرصوا من أمثال هؤلاء المنافقين الكذابين الخائنين روى البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن همام -رضى الله عنه- قال : كنا مع حذيفة فقيل له إن رجلا يرفع الحديث إلى عثمان -رضى الله عنه- أى يبلغه ما يقال عنه فى المجالس- فقال له حذيفة : سمعت النبى ﷺ يقول : «لا يدخل الجنة قتات» ولفظ مسلم : «لا يدخل الجنة نمام» ، والقتات هو النمام، وروى الأربعة -أيضاً- عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه».

والمجالس التى يجب أن تصان أسرارها هى ما خلت من العدوان على حقوق الناس، وأموالهم، وأعراضهم وأمنهم وإلا فلا حرمة لها ولا حق، بل على من سمع فيها شيئًا يضر بالناس فعليه أن يتخذ من الوسائل ما يمنع به ذلك روى أبو داود بسند حسن عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال : «المجالس بالأمانة -أى تحسن وتكمل بالأمانة فلا يجوز نقل ما دار فيها وإلا كان نميمة إلا إذا كان لا يؤذى أحدًا- إلا ثلاثة مجالس : سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق» فمن سمع فى مجلس أن من فيه يقصدون أحدًا بسوء كقتل أو زنا أو أخذ مال بغير حق وجب إفشاؤه دفعًا للمفسدة، ووجب تبليغ من يُقْصَد بالسوء ليأخذ حذره.

وما بين الزوجين أمانة وسر يجب ألا يطّلع عليه أحد من الناس، وكثير من الناس يحلو لهم أن يذكروا ما دار بينهم وبين زوجاتهم وكم فى ذلك من

(١) رواه أبو داود والترمذى بسند حسن.

إشاعة لأسرار البيوت، وهتك للحرمات، ونشر لرائحة الشهوات، وقد اعتبر الإسلام ذلك خيانة، وعد ما يدور بين الزوجين أمانة من أعظم الأمانات - روى الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ قال : «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة : الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها..»

وقد صورها رسول الله ﷺ بصورة منفرة أيما تنفير وذلك فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد : أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجال والنساء قعود عنده فقال : «لعل رجلا يقول ما فعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها» فَأَزَمَّ القوم - سكتوا وجلين - فقلت: أى والله يا رسول الله، إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن قال: «فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانه فغشيها والناس ينظرون!!.»

وأظهر مظاهر الأمانة وأعظم أبوابها هو الودائع التى تدفع إلينا لنحفظها حينا ثم نردها إلى أصحابها حين يطلبونها، وتلك الودائع قد لا يكون عليها شاهد، وقد لا يعرف أحد من الناس عنها شيئًا وليس مع صاحبها ما يثبت به حقه، وهى بذلك أمانة من أعظم الأمانات لابد أن تؤدى فمن خانها فقد ارتكب إثمًا عظيمًا لا يكفِّره أفضل الأعمال، فعن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- قال : القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب إلا الأمانة، قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة، وإن قتل فى سبيل الله فيقال : أدِّ أمانتك فيقول أى رب كيف وقد ذهبت الدنيا، فيقال انطلقوا به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها، فيهوى فى أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه فهو يهوى فى أثرها أبد الآبدين، ثم قال ، الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة والكيل أمانة وأشياء عددَّها وأشد ذلك الودائع.

قال راوى الحديث: فأتيت البراء بـن عازب فقلت : ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود، قال كذا ، قال البـراء : صدق، أما سمعتَ الله يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ .

هذه هى بعض صـور الأمانة وقـد رأيناها تشع سنا على كل جـانب من جوانب حيـاة الفرد والجماعـة، وبها وعليها يشاد بنيـان الإسلام العظيم الذى علم الدنيـا هذه الأمانة، وجـعلها منهج حـياة وأسلوب عـمل ومصـدر أمن وسعادة.

وهذه هى الركائز التى تشاد عليهـا حياة المسلم : الإخلاص ، والصدق، والوفاء والأمانة، وهكذا تتحدد المعالم ويتضح الطريق، ويقف المسلم فى عالم اليوم قويًا بدينه، عزيزًا بإسـلامه ، يعرف من هم إخوانه، ومن هم أعداؤه ، فلا يلتوى به سبيل، ولا تنحرف به غاية، ولا يجرفه تيار الهوى والشهوات ، ولا يسيطر على حسـه ومشاعره فكـر مادى ملحد، إنه فى عالم اليـوم، كما كان فى عالم الأمس، القوة التى تغيرُ الحيـاة والأحياء؛ لتأخذ بيدَ الإنسان إلى مجالات العزة، والكرامة والحرية،والسعـادة فى ظل راية التوحيد التى خفقت فى كل بقعة من أرض الله، وآن لها أن تخفق من جديد فى دنيا الناس؛ لترد القافلة الشـاردة، ولتنقذ الإنسانـية من الدمار، والهـلاك، وما ذلك على الله بعزيزٍ . . فاللهمَّ حقق الآمال، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ؟

أ.د/ عبدالفتاح عاشور

فهرس الجزء الثانى

«المسلم فى عالم اليوم»